الإمام علي عليه السلام

القائد السياسي الأمثل

بحث يتناول الأدوار السياسية للإمام علي عليه السلام

بقلم عبد الله الشريده

دار المحجة البيضاء

الإمام علي

القائد السياسي الأمثل

الإمام علي

القائد السياسي الأمثل

عبد الله محمد الشريدة

الإهـــداء

إلى من وضعني بيديَ عطفه في ساحة الإمام علي عليه السلام صغيراً.
إلى من علمني أبجديات حب الوصي.
إلى من أشعل في سنواتي الخمس الأولى شموع الـولاء، فأضـاءت سنيَّ عمري بالرضا والأمل.

أبي..
لا زلت أحبو على حروف (علي) منذ تركتني، وحتى آخر خطوة إليك يا أبي..
أهدي ثواب هذه الخطوات.
فلم تكن تملك إلا العطاء، ولم يتبق لي إلا الوفاء.
فتقبله مني..

ابنك،،

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وآله الطيبين الطاهرين.

كانت فكرة البحث مجرد موضوع قصير شاركتُ به يوماً ما في إحدى جلسات منتدى السهلة الأدبي، رسمت من خلاله بعض العناوين العامة لسياسة الإمام علي عليه السلام دون إفاضة وتفصيل، حتى إذا ما شدني إعلان طرح لجنة الاحتفالات الدينية لهذا الموضوع كمسابقة بحثية، ترددت في خوضي لهذا الموضوع، ففكرت بالمبادرة إلى إعادة صياغة ما كتبته سابقاً وتنظيمه، شارحاً للعناوين العامة حتى تستقيم كبحث مستقل يمكن تقديمه للجنة، دون أن أتصور أن مثل هذا الموضوع لا يمكن أن يختزل بوريقات قليلة، وإنما يحتاج إلى جهدٍ ووقت مضاعف، لأسباب منها:

ـ أولاً: إن هذا البحث بحسب ما حاولت الإطلاع عليه من المؤلفات التي كتبت حول الإمام علي عليه السلام فإنه موضوع مستجد، وإن لم يكن موضوعاً مستجداً فهو شبه مستجد، ولم يطرح كمؤلف مستقل، وإن وجد فإنها قليلة جداً، وغالبيتها لم تتناول المرحلة السياسية الفعلية، وإنما إشارات عابرة لسياسة الإمام عليه السلام، ويكون التركيز الأكثر فيها على المنهج التقليدي السردي لتناول حياة الإمام، من ذكر الولادة، والغزوات، والحِكَم التي

صدرت منه، وأدعيته الخاصة، وبعدها شيء قليل من سيرته السياسية، دون تحليل ودراسة موضوعية.

ـ ثانياً: بعض الأفكار المتناولة في هذا البحث قلما تجد لها نصوصاً توثيقية، لأنها لا تُتناول عادةً كنقطة أساسية لدى الكُتاب، وإنما تذكر كشواهد عابرة وهامشية، لذا فإنه على الباحث الجدَّ في البحث والإطلاع حتى يجد مبتغاه.

ـ ثالثاً: الكتابة في مثل هذا الموضوع بشكل وافٍ ومُشبع تحتاج إلى وقت طويل، فقد لا يسعف الباحث الشهر والشهران كي يتم بحثه على أكمل وجه، لذا فإن بعض الأفكار قد اختزلتها اختزالاً، وبعضها الآخر قد اقتصرت فيه على الأهم منها، على أن أعود لها في وقت لاحق إن شاء الله.

وهذا الكتاب الذي بين يديك ما هو إلا اختزال للبحث الأساسي، فقد اقترح عليَّ أحد الإخوان المقربين اختزاله والاقتصار على الشواهد الرئيسية دون إفاضة، إذ إن الكثير ينفر من قراءة الكتب المطولة، فكان هذا الكتاب الذي بين يديك اختزالاً لبحث بلغت صفحاته أربعمائة صفحة، إذ حاولت أن اقتصر فيه على أهم الشواهد والنصوص، عارضاً الفكرة بشكل مختزل.

أما عن تبويب الفصول فقد اعتمدت على أن أعرض الحركة التاريخية السياسية للإمام في الفصول الأولى، كي يتعرف القارئ على أدوار الإمام علي عليه السلام السياسية ومن ثم أدرجت الفصول الأخرى والتي تحتوي العوامل الموضوعية لسياسته، بالإضافة إلى عرض مجمل لآراء الباحثين في سياسة الإمام سواءً الآراء السلبية منها أو الإيجابية، بالإضافة إلى الفصل

الأخير الـذي خصصـته لبيـان الفـوارق السياسـية بـين الإمـام عـلي عليه السلام ومعاوية.

ولا أملك في الختام إلا أن أقول: ما كـان في هـذا البحـث مـن فائـدة عرضتها، أو فكرة تحصلت عليها فبتوفيق من الله ولطف منه، وما عجزت عنه فمردّ التقصير إلي.

داعياً من الله أن يتقبل هذا العمل البسيط بقبـول حسـن، وأن يكـون خطوة مضيئة في طريق معرفة الإمام الأكبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وأن يتقبله مني بقبول حسن.

قائلاً لـه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين.

عبدالله بن محمد الشريدة

٤ / ١١ / ١٤٢٩هـ

الفصل الأول:

الأدوار السياسية للإمام علي عليه السلام

أثار الخليفة الثالث عثمان بن عفان غضب الناس جراء فساده المالي والإداري وتصرفه غير الشرعي في أموال المسلمين، وكذا تنصيب أقاربه من بني أمية ـ غير المؤهلين ـ في مناصب عالية، وتسليطهم على مقدّرات الأمة، والتي أدت بالتالي إلى تنحية الشخصيات الجديرة والمؤهلة من المهاجرين والأنصار، وحيث أنه لم يستجب لاعتراضات ومطالب المسلمين المتكررة والمشروعة فيما يتعلق بتنحية عمّاله وولاته الفاسدين انطلقت شرارة الثورة على حكومته والتي انتهت بقتله.

كان الناس في هذه المدة ـ ما بعد قتل الخليفة عثمان ـ يعيشون حالة من الفوضى والضياع، يراجعون الإمام علي عليه السلام أكثر من مرة غير أنه كان كثيراً ما يتوارى عن الأنظار إلا أنهم كانوا يطالبونه بقبول بيعتهم، وهو لا يزال يرى أن الظروف غير مناسبة لقبول تلك الخلافة والحكم[1].

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: (دعوني والتمسوا غيري فإنَّا مستقبلون أمراً له وجوهٌ وألوانٌ ولا تقوم له القلوب ولا تثبتُ عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجَّة قد تنكَّرت..) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٩٢.

وبعد كثرة التوافد على الإمام وازدحامهم عليه وإصرارهم على قبوله الخلافة بشكل ملفت للنظر[1] قَبِلها على شرط كان أفهمهم إياه جيداً في خطبته:

(.. واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلمُ ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتبِ، وإن تركتموني فانا كأحدكم ولعلِّي أسمعكُم وأطوعكم لمن ولَّيتموه أمركم وأنا لكم وزيراً خيرٌ لكم مني أميراً ..)[2].

الإمام علي عليه السلام كان منذ اللحظات الأولى لاندفاع الناس نحوه للمبايعة قد أعلن عن رغبته في تغيير وضع الدولة الإسلامية بشكل عام، ذلك أن زمن الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد ابتعد بالمسلمين عن المنبع الأصيل للإسلام في كثيرٍ من جوانبه، والذي أيقن الإمام عليه السلام بأنّه من الصعب جداً ممارسته للحكم والخلافة بالمنطق الرسالي المحمدي بعدما أتلف الناسَ كثير من تلك التغييرات، واستفاد منها عدد غير قليل من كبار القوم ومؤيديهم.

فانطلقت الحركة التغييرية للإمام عليه السلام لإعادة الخلافة إلى ما يريده الله ورسوله، فصار الحكم الإسلامي الذي مارسه الإمام على الرغم من قصر عمره نموذجاً كاملاً للحكومة الإسلامية.

ويمكننا أن نطلع على أدوار الإمام علي عليه السلام السياسية ضمن الآتي:

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: (وبسطتُم يدي فكففتها ومددتموها فقبضتها ثم تداككتم عليَّ تداكَ الإبل الهِيمِ على حِياضها يوم وِردها حتَّى انقطعت النَّعل وسقط الرِّداءُ ووُطئ الضَّعيف ..). نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٩٢.

إصلاح الوضع الاقتصادي للدولة:

منح الخليفة عثمان بن عفان أموالاً طائلة لخصوص قرابته من بني أمية بالذات، بعد أن كان أغلبيتهم من الفقراء المُعدمين.

وقد يكون أكثرها شهرةً وهب الخليفة عثمان الحكم بن العاص[1] مائة ألف درهم بعد إرجاعه إلى المدينة المنورة[2].

ويذكر ابن أبي الحديد في شرحه للنهج[3] أن الخليفة عثمان أعطى عبد الله بن أبي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح إفريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب إلى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى أبا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بمائة ألف من بيت المال، وقد كان زوجه ابنته أم أبان.

فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح، فوضعها بين يدي عثمان وبكى، فقال عثمان: أتبكي أن وصلت رحمي ! قال: لا، ولكن أبكى لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضا عما كنت أنفقته في سبيل الله في

---

(١) الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وهو عم الخليفة عثمان، وكان أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ، اطلع على رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في بعض حجر نسائه فعرفه وخرج إليه وقال: من عذيري من هذا الوزغ اللعين ؟ ثم قال: والله لا يساكنني ولا ولده، فغربهم جميعا إلى الطائف، فلما توفي رسول الله ﷺ، كلم عثمان أبا بكر فيهم فأبى أن يعيدهم إلى المدينة، وقال: ما كنت لآوي طرداء رسول الله، ثم لما استخلف عمر كلمه عثمان فيهم، فقال مثل قول أبي بكر، فلما استخلف عثمان أدخلهم المدينة.
رجال تركوا بصمات على قسمات التاريخ: للسيد القزويني، ص ٨٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ١ ص ١٩٨.

(٣) المصدر السابق، ج ١ ص ١٩٩.

حياة رسول الله ﷺ، والله لو أعطيت مروان مائة درهم لكان كثيرا. فقال: ألق المفاتيح يا بن أرقم، فإنا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسمها كلها في بنى أمية. وأنكح الحارث ابن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صرفه زيد بن أرقم عن خزنه.

ولكي يستقطب كبار القوم ووجهاءهم والأشراف من ذوي النفوذ بالدولة فقد منحهم أموالاً طائلة، وأقطعهم أراضٍ واسعة. فقد أعطى طلحة بن عبيد الله مائتي ألف دينار، وكانت عليه خمسون ألفاً فأحضرها طلحة، فوهبها له، وقال: هي لك على مروءتك[1].

كما منح الزبير بن العوام ستمائة ألف، فاحتار في صرفها [2].

أما زيد بن ثابت فقد منحه أموالاً هائلة، حتى بلغ من ثرائه الفاحش أنه لما توفي خلّف من الذهب والفضة ما يكسّر بالفؤوس، ناهيك عما ترك من الأموال والضياع ما قيمته مائة ألف[3].

وعلى صعيد آخر نذكر بعض الأسماء التي أقطعها الخليفة عثمان بعض الأراضي، منهم: طلحة بن عبيدالله وقد أقطعه أرضاً سُميت فيما بعد بـ (دار الطلحيين)، وكانت في الكناسة.

وأقطع عبيدالله بن عمر أرضاً بالكوفة، أطلق عليها (كوفيّة ابن عمر).

---

(١) تاريخ الطبري: ج ٥ ص ١٣٩.

(٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد، ج ٣ ص ٧٩.

(٣) مروج الذهب: المسعودي، ج ١ ص ٣٣٤، بتصرف.

كما منح عدي بن حاتم أرضاً تسمى (البردجاء)، ومنح الأشعث الكندي أرضاً تسمى (ظيزناباد)، وأقطع جرير بن عبدالله البجلي أرضاً على شاطئ الفرات تسمى (الجرافين) [1].

ونختم حديثنا بكلام المسعودي[2] حيث يذكر أن الخليفة عثمان بنى داراً بالمدينة المنورة بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر، وأقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة، وكان ينضد أسنانه بالذهب، ويتلبّس بأثواب الملوك، وأنفق الكثير من بيت المال في عمارة ضياعه ودوره.

ولعل ما ذكرناه يعطينا لمحة موجزة عن الوضع الاقتصادي المتبع في ظل خلافة عثمان بن عفان، ومن ثمَّ نجد أن المبرر لتغييره من قبل الإمام عليه السلام أصبح واضحاً وجلياً، فهو وضع فاسد لا يمت إلى الدين الإسلامي بأي صلة، ومن ثم وجب على الإمام علي عليه السلام السعي إلى تغييره، باتباعِ خطوتين:

رد الهبات والإقطاعات التي منحها عثمان إلى بيت المال:

ما إن وصل الإمام علي عليه السلام إلى الخلافة والحكم حتى أعلن عن نيته إرجاع جميع الأموال والإقطاعات التي منحها الخليفة عثمان بن عفان إلى بيت المال في خطبته الأولى أمام الجموع المحتشدة: (.. وإني حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمره، ألا وإن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق لا يبطله شيء).

(١) انظر موسوعة الإمام أمير المؤمنين: للشيخ القرشي، ج ٢ ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.
(٢) انظر مروج الذهب، ج ١ ص ٣٣٤، والسيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٧.

إلى أن قال: (والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماءُ لرددته؛ فإن في العدل سعةً. ومن ضاق عليه العدلُ، فالجور عليه أضيقُ !)[1].

وبهذا فقد وضّح الإمام علي عليه السلام الإجراء الذي ينوي أن يتخذه جراء تلك الأموال والأراضي التي وهبها الخليفة عثمان بن عفان لقرابته من بني أمية ولوجهاء وأشراف القوم ممن يرتضي سياسته.

وأمر الإمام علي عليه السلام بدءاً من يومه الثاني لخلافته بأن يُسلم أي سلاح وجد لعثمان في داره، مما تقوى به على المسلمين، فقبض، وأمر بقبض نجائب كانت في داره من إبل الصدقة، فقُبضت، وأمر بقبض سيفه ودرعه[2].

وقد شارك هذا القرار بصورة كبيرة في الأحداث السياسية التي عاشها الإمام، حيث كانت من أبرز الأسباب التي أدت إلى هروب بعض النفعيين والمتنصلين إلى عدوه معاوية بن أبي سفيان[3]، بينما سعى البعض الآخر إلى إسقاط حكومته وخلافته.

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: ابن ابي الحديد، ج ١ ص ٢٧.

(٣) يذكر ابن أبي الحديد في شرحه للنهج: ج ١ ص ٢٢٠، أن عمرو بن العاص لما بلغه كلام الإمام علي عليه السلام أرسل رسالة عاجلة إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام جاء فيها: (أما بعد، ما كنت صانعاً فاصنع، إذا قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه، كما تقشر عن العصا لحاها..).

المساواة في العطاء بين جميع المسلمين:

أعلن الإمام علي عليه السلام إلغاء التمايز بالعطاء بكلِّ أسبابه وأساليبه، وعهد إلى التسوية بين الناس في العطاء، فالناس عنده سواسية كأسنان المشط؛ وانقطعت آمال الطبقة الغنية التي لم تنظر للدنيا إلا بالمنظار المادِّي.

يقول عليه السلام: (ألا لا يقولنَّ رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا، فاتَّخذوا العقار وفجَّروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة، واتَّخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا !) [1].

ولَّما نادى أمير المؤمنين عليه السلام لقبض الحقوق، قال عليه السلام لكاتبه عبيدالله بن أبي رافع: (ابدأ بالمهاجرين فنادهم، وأعطِ كلَّ رجلٍ ممَّن حضر ثلاثة دنانير، ثُمَّ ثنِّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك، ومن يحضر من الناس كلّهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك).

وتخلَّف يوم ذاك رجال منهم: طلحة، والزبير، وعبدالله بن عمر، وسعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، وقد عزَّ عليهم أن يكونوا كغيرهم من الموالي والعبيد !.

هنالك خطب الإمام عليه السلام مرَّةً أُخرى خطبة قال فيها [2]:

(هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد: ج ٧ ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٧ ص ٤٠.

ذلك إلا جاهل عاند عن الحق، منكر، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾.

ثم صاح بأعلى صوته: ﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

ثم قال: يا معشر المهاجرين والأنصار: أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ؟! ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

ثم قال: أنا أبو الحسن ـ وكان يقولها إذا غضب ـ. ثم قال:

ألا إن هذه الدنيا التي أصبحتم تمنونها وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرنكم فقد حذرتموها، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله، والذل لحكمه، جل ثناؤه، فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه).

وتتجلى مساواته وعدله في العطاء حتى مع أهل بيته وخاصته من قرابته، فقد كان الإمام عليه السلام حريصاً على معاملة ذويه في مسألة الحقوق كما لو كانوا من عامّة الناس، فلا يفضِّلهم بعطاء، ولا يميِّزهم بحق، وسلك معهم أسلوب التدريب والإعداد للعمل بمنهاجه معهم.

بل كان كما يبدو شديداً مع بعضهم من أجل أن ينتهجوا الخط الّذي

رسمه لرعيته وأهل قرابته[1].

عزله لولاة الخليفة عثمان:

إن منصب الولاية على الأقاليم الإسلامية منصب كبير ومهم، فالولاة يعتبرون نواباً للحاكم والخليفة، ومن هنا كان هذا المنصب ذا أهمية كبيرة لدى الكثير من الناس إذ إن اعتلاءه هذا المنصب سيجعل منه متحكماً في مصائر الناس وأموالهم، فإن كان صالحاً تقياً ورعاً كان هذا المنصب مجرد مسئولية تضاف على عاتقه، وإن كان غير ذلك استغل نفوذه وسطوته على أموالهم ومقدراتهم فيما ينفعه هو ومن يطبل ويزمر لسياسته، أضف إلى ذلك بأن الوالي يعكس صورة عن الخليفة الذي ينوب عنه في أعين الناس.

يقول النبي الأعظم ﷺ: (ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرةً وندامةً يوم القيامة، فنعمتِ المرضعةُ وبئست الفاطمةُ)[2].

---

(١) طلب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من الإمام علي عليه السلام معونة من بيت مال المسلمين وقال له: يا أمير المؤمنين، لو أمرت لي بمعونة أو نفقة، فوالله مالي نفقة إلا أن أبيع دابتي. فقال الإمام عليه السلام: لا والله ما أجد لك شيئا، إلا أن تأمر عمك أن يسرق فيعطيك.
وقد جاءه عقيل أخوه وكان ضريرا يوما يطلب صاعا من القمح من بيت مال المسلمين: زيادة على حقه، وظل يكرر طلبه على علي عليه السلام، فما كان من الإمام إلا وأحمى له حديدة على النار وأدناها منه، ففزع منها عقيل.
ثم وعظه: يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها لمدعبة، وتجرني إلى نار سجرها جبارها من غضبه، أتئن من الأذى ولا أئن من لظى ؟.
انظر كتاب: رجال تركوا بصمات على قسمات التاريخ: للسيد لطيف القزويني، ص ٨٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، ج ٨ ص ١٠٦. وسنن النسائي: ج ٨ ص ٢٢٥.

وكان كبار الصحابة وخيارهم يتحرجون من قبول الإمارة، لأنها قد تصد الإنسان عن الطاعة وتلبسه لباس المتعالي، وتجعل الدنيا نصب عينه، وتنسيه الآخرة.

يقول المقداد[1]: استعملني رسول الله على عملٍ، فلما رجعت قال لي: كيف وجدت الإمارة ؟ فقلت: يا رسول الله، ما ظننت إلاّ أن الناس كلهم حولي، والله لا ألي على عمل ما دمت حياً.

ويقول أحد من حضر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم: بئس الشيء الإمارة ! فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (نعم الشيء الإمارة لمن أخذها بحقّها وحِلّها)[2].

وبالنظر إلى عدل الإمام علي عليه السلام وعدم مساومته في الحق فإن ذلك يعطينا مؤشراً أن مثل ولاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان لم ولن يكونوا بالولاة الذين يرتضيهم منهجه، وهم بالوقت نفسه لن يغيروا منهجهم الفاسد الذي اعتادوا عليها لسنين طوال، واستفادوا منه أموالاً ووجاهات وقصوراً وأراضٍ، لذا كانت الطريقة الأفضل هي عزلهم واستبدالهم بأناس يؤتمن جانبهم، يكون الله عز وجل نصب أعينهم، ولا تكون الدنيا أكبر همهم.

(١) تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر، ج ٦٠ ص ١٦٩.

(٢) عيون الأخبار: لابن قتيبة: ج ١ ص ١.

نماذج من ولاة الخليفة عثمان:

استغنى الخليفة عثمان بن عفان عن الاستعانة بكبار الصحابة من سكان المدينة المنورة آنذاك، واكتفى بإعطاء أهم مناصب الدولة لقرابته من بني أمية وحاشيته الخاصة بالرغم أنهم لا يملكون مقومات الولاية ولا يستحقونها عملاً ولا ديناً، وإنما كان يسمي أعطياته لهم من بيت مال المسلمين وإقطاعهم الأراضي الشاسعة بأنها (صِلَة رحم)[1].

- **الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط:**

وهو أخو عثمان لأُمِّه، كان أبوه عُقْبة أشدّ الناس أذىً لرسول الله ﷺ وعداوة للمسلمين، إلى درجة فاقت الآخرين من سادة قريش في مكة، وكان من شدة عدائه لرسول الله ﷺ أنه قد أمر بإعدامه هو وبضعة أشخاص من بين أسرى قريش يوم بدر[2].

عين الخليفة عثمان الوليد على الكوفة بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص سنة ٢٤ للهجرة.

وأثار هذا القرار من الخليفة عثمان استياءً عاماً، إذ إنه كان معروفاً بفسقه وفجوره وشربه للخمور بعد أن صلى بهم الصبح سكرانا.

أقام الخليفة عثمان بن عفان عليه الحد ـ بعد أن حاول أن يدافع عنه

---

(١) كان الخليفة عثمان مُحِبّاً لأقاربه من بني أمية، وقد أُثر عنه قوله: (ووالله، لو أنّ مفتاح الجنّة بيدي، لأدخلت بني أمية إليها).
انظر البداية والنهاية: لابن كثير، ج ٧ ص ١٧١.

(٢) المصنف: لابن أبي شيبة الكوفي، ج ٨ ص ٤٧٧.

ويجادل ـ لما شرب الخمر في حضور سُمّاره وشهد عليه الشهود[1].

وقد بلغ به التهتك أنه صلى بالمسلمين الصبحَ أربعَ ركعات وهو مخمور. فلما استنكروا عليه قال: هل أزيدكم ؟ فاضطر بعضهم لنزع خاتمه من يده، وهو لا يدري من كثرة الشرب، كدليل يحملونه إلى عثمان على سُكره.

○ **سعيد بن العاص:**

بعد الفضيحة التي لحقت بالوليد بن عقبة، وإقامة الحد عليه رغماً عن أنف الخليفة نفسه، لم يستطع أن يُرجعه إلى الكوفة والياً عليها، فاستبدله بسعيد بن العاص بن أمية، وكان سعيدٌ هذا شاباً متهوراً تربى على الترف في حجر الخليفة عثمان.

وكان أبوه قد قُتل بيد الإمام علي عليه السلام في معركة بدر، فقام بتربيته الخليفة عثمان، فلما قَدِمَ الكوفة أبى أن يخطب على منبر الكوفة العام حتى يُغسل من جديد ويُطهر بزعمه، فغُسل، فصعد المنبر وتكلم بكلام شديد، توعدهم فيه، ونسبهم إلى الشقاق والخلاف.

وقال في آخر خطبته: وإنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش

---

(١) حاول الخليفة عثمان كثيراً إن يعطل حد شربه للخمر، إذ أن شهوداً قد أقسموا أنهم شاهدوه ثملاً لا يفقه ما يقول فنزعوا خاتمه من يده وهو لا يشعر بشيء. فكذبهم وضربهم أسواطاً لافترائهم على أخيه، فشكوا الأمر إلى الإمام علي عليه السلام، فقال له: عطلت الحدود وضربت قوماً شهدوا على أخيك فقلبت الحكم، فما لبث الإمام عليه السلام حتى جلده بسوط له شعبتان أربعين جلده.
انظر أنساب الأشراف: للبلاذري، ج ٥ ص ٣٤ ـ ٣٥.

وبني أمية [1].

○ **عبدالله بن أبي سَرح:**

عبدالله بن أبي سَرح ابن خالة عثمان وأخوه من الرّضاعة، وكان كاتباً لرسول الله ﷺ فظهرت خيانته في الكتابة فطرده رسول الله ﷺ، فارتدّ عن الإسلام ولحق بأهل مكّة وأخبرهم: إنّي كنت أصرف محمّداً حيث أريد، كان يملي عليّ (عزيز حكيم) فأقول (عليم حكيم)، فأنزل الله فيه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ .. ﴾ فأهدر الرّسول ﷺ دمه[2].

ولاه الخليفة عثمان على مصر بعد أن عزل عمرو بن العاص عنها سنة ٢٥ للهجرة.

وبعد فتح أفريقيا بالمغرب، وهي طرابلس الغرب إلى طنجة وهبه

---

(١) انظر الطبقات الكبرى: لابن سعد، ج ٥ ص ٣٢، وشرح النهج: لابن أبي الحديد: ج ١٧ ص ٢٤٢.

(٢) يروي ابن عبدالبر في الاستيعاب ج ٣ ص ٩١٨: أنه لما كان يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بقتله وقتل عبدالله بن خطل ومقيس بن صبابة، ولو وجدوا تحت أستار الكعبة.
ففر عبدالله بن سعد إلى عثمان بن عفان فغيّبه، حتى إذا أتى النبي ﷺ واستأمنه، فلم يجبه النبي ﷺ إلا بالصمت، فلما لم يزل عثمان يُلح على النبي بالاستئمان له، قال له: نعم.
فلما انصرف عثمان، قال رسول الله ﷺ لمن حوله: ما صَمَتُّ إلاّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه.
فقال رجل من الأنصار: فهلاّ أومأت إليّ يا رسول الله ؟ فقال: إن النبيّ لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين.

جميع ما أفاء الله على المسلمين من هذا الفتح لا يُشاركه فيه أحد[1].

- **عبدالله بن عامر بن كُرَيز الأموي:**

وهو ابن خالة الخليفة عثمان ومن أسرته ـ بني عبدشمس ـ ، ولاّه البصرة بعد عزل أبي موسى الأشعري سنة ٢٩ للهجرة، وكان عمره آنذاك خمساً وعشرين سنة.

كما ولاه بلاد فارس بعد أن عزل عثمان بن أبي العاص، فأصبح والياً على إقليمين كبيرين وهو حدث السن، ولا يملك أياً من مقومات الحاكمية إلا امتلاكه النسب الأموي.

والغريب في الأمر أن الخليفة عثمان بن عفان لما أراد أن يعزل أبا موسى الأشعري وأن يولي مكانه عبدالله بن عامر بن كريز، وهو يومئذ صغير السن؛ علل ذلك أنه أراد أن يصل قرابة عبدالله بن عامر، لا من أجل عجز أو خيانة صدرت من واليه أبي موسى الأشعري.

وعلى كل حال نستطيع أن نجمل الخطوط التي يشترك فيها هؤلاء الولاة وغيرهم ممن ولاهم الخليفة عثمان بالآتي:

١. جميعهم من أسرة واحدة هي آل أمية ومن يمت لهم بصلة.
٢. جميع هؤلاء الولاة قد انتفعوا من حكم الخليفة عثمان.
٣. إنّ لهم جميعاً آباءً أو أخوة أو أعماماً كانوا من أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمستهزئين بنبوّته أو أنّهم هم أنفسهم كذلك.

---

(١) يذكر ابن الأثير في تاريخه ج ٣ ص ٣٥: أن عثمان أعطى عبدالله بن أبي سرح خمس الغزوة الأولى، وأعطى مروان بن الحكم خمس الغزوة الثانية.

الجبهة المعارضة:

أدت سياسة عثمان إلى تصدي عدد من كبار الصحابة لما حملته هذه السياسة من نهب للثروات وتوليته فُساق الأمة وجهلتها على المسلمين.

ويمكننا أن نقسم هذه الجبهة التي تعارض سياسة الخليفة عثمان إلى قسمين:

ـ **القسم الأول**: الجبهة المعارضة من ذوي النسب القرشي الرفيع وكبار الصحابة، وكانت ردود فعل الخليفة تجاههم بالاستجابة الجزئية لبعض مطالبهم وانتقاداتهم، ويتجاهل في كثير من الأحيان مواقفهم التي ينتهجونها ضده.

وكان على رأس هذه الجبهة الإمام علي عليه السلام، فقد كانت علاقته مع الخليفة عثمان متوترة معظم الأوقات، وكان ينظر له ولسياسته بعمومها أنها فاسدة، وتحتاج إلى الكثير من الإصلاح[1].

وبالرغم من امتعاض الخليفة عثمان وغضبه الشديد من مواقف الإمام علي عليه السلام تجاهه إلا أنَّه لم يستطع أن يتخذ موقفاً ضده غير التهميش والتجاهل فقط.

ـ **القسم الثاني**: الجبهة المعارضة من ذوي الأصول المتواضعة، من الموالي والعوام من القبائل المتواضعة نسباً، فإن الخليفة عثمان بن عفان أظهر

---

(١) يروي ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٣٩ ص ٢٦٤: أن العباس عم الإمام علي عليه السلام حاول أن يلطف الأجواء بين الإمام وبين الخليفة عثمان، فرده بقوله: (.. والله لو أمرني أن أخرج من داري لخرجت، فأمّا أداهنُ أن لا يُقام بكتاب الله، فلم أكن لأفعل).

مقداراً كبيراً من البطش والقوة في حقهم، بل وصل به الحد إلى أن يفرض عقوبات تنتهي بأصحابها للموت.

ومن أشهر الحوادث التي أظهرت عنجهية عثمان وبطشه، هي بطشه بأبي ذر الغفاري ونفيه إلى الربذة[1]، وعمار بن ياسر[2]، وعبدالله بن

(١) أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري، كان رابع أربعة سبقوا إلى الإسلام، وكان من المتأهلين في الجاهلية والذين عبدوا الله وتركوا الأصنام. ولما أسلم أجهر بإسلامه في البيت الحرام بمكة فضربه رجال من قريش حتى ضرجوه بدمه وأغمي عليه فتركوه ظنا منهم أنه قد مات. ثم رجع إلى بلاده بعد أن قال له الرسول: (ارجع إلى أهلك حتى يأتيك خبري)، وأقام بها حتى مضت بدر وأحد فقدم إلى النبي ﷺ في المدينة، ثم سير إلى الشام بعد وفاة النبي ﷺ ومكث هناك حتى شكاه معاوية إلى الخليفة عثمان بن عفان، فاستقدمه الخليفة وعنفه ونفاه إلى الربذة ـ بين مكة والمدينة ـ وتوفي بها سنة ٣٢ هـ.
وقد ورد عن الرسول أحاديث كثيرة في مدحه منها قوله ﷺ: (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر).
انظر كتاب عبد الله بن سبأ: للسيد العسكري، ج ١ ص ٣٦-٣٧.

(٢) هو أبو اليقظان عمار بن ياسر، مولى أو حليف بني مخزوم، كان هو وأبوه وأمه سمية وأخوه من السابقين إلى الإسلام، وقد احتملوا الصدمة الأولى، وعذبوا عذابا أليماً بأيدي السفهاء من قريش، وكان رسول الله ﷺ يمر على آل ياسر بالأبطح، وهم يعذبون في رمضاء مكة، فيقول صبرا (آل ياسر)، موعدكم الجنة.
هذا وكان عمار محاطاً بهالة من الأحاديث النبوية الشريفة التي ترفع من شأنه، وتعوضه عن العذاب الذي لقيه في سبيل الله، وتجعله من عظماء المسلمين.
ينقل التاريخ بعض من تلك المصادمات والمواقف والمواجهات بين الصحابي الجليل عمار بن ياسر والخليفة عثمان، وإحداها موقفه منه حين وهب الخليفة عثمان بعض نسائه من مال المسلمين ما تتزين به فكانت المواجهة بينهما، فأوعز عثمان إلى شرطته فأخذوه وضربوه حتى غشي عليه.
انظر: الإمامة وأهل البيت: لـ د.محمد بيومي مهران، ج١ ص ٢٨٨. والسيف والسياسة: للورداني ص ٩٠.

مسعود، ونذكر هنا حادثة واحدة، ولو لم تكن إلا هي لكفت.

كان عبدالله بن مسعود ضمن من عاقبهم الخليفة عثمان، لا لشيءٍ سوى أنه اعترض على والي الكوفة الأموي الوليد بن عقبة إثر نهبه لبيت مال المسلمين، وكان خازن بيت مال المسلمين حينها، فاعتزل الأمر، فأمر الخليفة عثمان بأن يؤتى به إلى المدينة، فلما أن وصل تعرض لأنواع العقاب الجسدي، منها أنه جُر برجله في السوق حتى كُسر له ضلعان، واستمر العقاب إلى أن شارف ابن مسعود على الموت فتركه.

كما عاقبه نفسياً بأن حرمه عطاء ثلاث سنين، حتى إذا ما أحس الخليفة عثمان أن ابن مسعود شارف على الموت أتى بعطائه وألقاهُ إليه، فلم يقبله منه، وقال له: منعتنيه وأنا محتاج إليه ؟ وتعطينيه وأنا غني عنه لا حاجة لي به. فانصرف [1].

استبدال ولاة عثمان بولاة صالحين:

تعتبر مشكلة استبدال الولاة المتربعين على عروش الظلم والاستبداد والنهب هي أكبر مشكلة جابهت الإمام علي عليه السلام في ظل خلافته، ولصعوبة عزلهم بشكل سلمي فقد حاول البعض ممن حول الإمام علي عليه السلام مفاوضته بإبقائهم في مناصبهم وامتيازاتهم، فرفضَ ذلك بِمبدَئِيّتِهِ المعهودة الّتي لا تلين.

وصل أحد أفراد تلك الطبقة المُتْرَفة ـ المغيرة بن شعبة ـ إلى منزل الإمام عليّ عليه السلام وطلب الانفراد به، وتقدّم إليه بنصيحة أن يُبقي ولاة عثمان

(١) انظر تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧١، وتاريخ دمشق: لابن عساكر: ج ٦٣ ص ٢٤٠.

على مناصبهم ولو للعام الذي هم فيه، فإذا بايعوه واستتبّ له الأمر فبإمكانه أن يقوم بعزلهم مِن أعمالهم إن أراد ذلك، فرّد عليه الإمام انّه لا يُداهِنُ في دينهِ ولا يُساوِم.

فعرضَ عليه عرضاً آخر: أن يترك معاوية بن أبي سفيان حاكماً في بلاد الشام، وفسّر ذلك بقوله إن: (.. لمعاوية جُرأة، وهو في أهل الشام يُسمعُ منه، ولك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام كلها ..) فرّد الإمام علي عليه السلام: (لا والله، لا أستعمل معاوية يومين أبداً)[1].

أسباب رفض الإمام علي عليه السلام التعامل مع ولاة عثمان:

يمكننا أن نجمل أسباب رفض الإمام عليه السلام إبقاء ولاة عثمان على مناصبهم ولو إلى حين في الأسباب التالية:

١. أغلب أولئك الولاة ظلمة يمشون بالجور والظلم بين الناس، مما سبب ذلك إثارة نقمة المسلمين على الخليفة عثمان وقتله في نهاية الأمر.
٢. إنّ منهج الإمام علي عليه السلام الإصلاحي يقتضي اعتماده على عناصر متديِّنة، مؤمنة بمنهجه الّذي لا يتنازل ولا يرضخ لأية مساومة في الحق.
٣. إنّ إقراره أولئك الولاة في أعمالهم ولو إلى حين، سوف لا يسمح له بعزلهم فيما بعد، إذ سيجعل الأمة تتساءل: إذا كانوا غير لائقين ومؤهلين فعَلامَ أقرّهم من قبل؟ وإن كانوا لائقين فلماذا يعزلهم اليوم من مناصبهم ؟!

(١) انظر تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤٦١.

٤. إذا أقرّ الإمام عليه السلام أولئك الولاة في مناصبهم فإنّ أيّ ظُلْم واعتداء أو ارتكاب محرّم يصدر منهم سيتحمّل مسؤوليته هو لاسيّما أنه هو من أقر عملهم وارتضاهم ولاة على الناس.
٥. إنّ إقرار الإمام عليّ عليه السلام لأي من هؤلاء الولاة الفاسقين سيعطي سابقة تاريخية وشرعية تسوِّغ وتجوِّز تعيين الولاة الفَسَقَة.

نماذج من ولاة الإمام علي عليه السلام:

كان الإمام علي عليه السلام حريصاً كل الحرص على تعيين الولاة المخلصين والمؤهلين من أصحابه وأتباعه بالأقاليم الإسلامية منطلقاً في ذلك من حديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول: (أيما والٍ ولي الأمر من بعدي أقيم على حد الصراط، ونشرت الملائكة صحيفته، فإن كان عادلاً أنجاه الله بعدله، وإن كان جائراً انتفض به الصراط حتى تتزايل مفاصله، ثم يهوي إلى النار، فيكون أول ما يتّقيها أنفهُ وحرُّ وجههِ)[1].

ولعل أبرز تلك النماذج المشرقة:

○ **سهل بن حنيف الأنصاري:**

ذا علم وعقل ورياسة وفضل شهد مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدراً فما بعدها من المشاهد، وثبت معه يوم أحد وبايعه ـ يومئذ ـ على الموت، وكان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنبل، فيقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (نبّلوا سهلاً فإنّه سهل)[2].

(١) شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ٧ ص ٣٦ - ٣٧.
(٢) المنتخب من ذيل المذيل: للطبري، ص ١٧.

وهو من الأصفياء السابقين الذين رجعوا إلى الإمام علي عليه السلام ولزموا منهاجه ومن الاثنى عشر الذين أنكروا على الخليفة الأول أبي بكر، استخلفه الإمام علي عليه السلام على المدينة حين خرج إلى العراق واستعمله على بلاد فارس كما ولاه البصرة.

شهد سهل واقعة صفين مع علي عليه السلام وكان من شرطة الخميس، وهم الذين اشترطوا على أنفسهم القتال، وضمن لهم علي عليه السلام الجنة توفي بالكوفة بعد الانصراف من قتال أهل الشام سنة ٣٨ هـ.

كفنه الإمام علي عليه السلام في برد أحمر وحبرة وكبر عليه خمسا وعشرين تكبيرة، كلما أدركه الناس قالوا: يا أمير المؤمنين لم ندرك الصلاة على سهل فيضعه ويكبر حتى انتهى إلى قبره، وقد صنع ذلك خمس مرات يكبر في كل مرة خمس تكبيرات، وروي أنه عليه السلام قال: لو كبرت عليه سبعين لكان أهلا وناهيك بذلك فضيلة ونبلا [1].

- **عبدالله بن عبّاس:**

من أبرز تلاميذ الإمام عليه السلام، أخذ عن الإمام التفسير والفقه، وكان حافظاً ذكياً مواظباً على أخذ العلوم من الإمام علي عليه السلام، اتخذه الإمام مستشاراً ووزيراً له أيام خلافته، وكان يستشيره في شؤون الدولة السياسية منها والاجتماعية.

كان ممن يثق بهم الإمام علي عليه السلام ثقة كبيرة، ولذا كان يُصر على أن

(١) الفوائد الرجالية: للسيد بحر العلوم: ج ٣ ص ٣٦.

يبعثه في مواطن النقاشات ومناظرة المتمّردين على حكومته ــ كما فعل في حرب النهروان ـ.

لُقب بحبر الأمة، ولاه علي عليه السلام على البصرة بعدما شاعت فيها الفتن بعد واقعة الجمل، وذلك لكثرة من قُتل فيها، فكانت تلك الولاية تكُن العداء والبغض والحقد للإمام عليه السلام، لذا لم يجد الإمام علي عليه السلام أفضل من ابن عباس ليتولى زمام ولاية قد تخرج من طاعته لكثرة الفتن فيها، فهو المناظر الذي لا يشق له غبار، وهو الفطن الذي دربه سنين طويلة تحت جناحه، وعلمه ما يمكنه أن يُصلح حال أهالي البصرة.

○ **عمر بن أبي سلمة:**

عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أمه أم المؤمنين أم سلمة، ولد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة، كان من الصحابة المخلصين للإمام، أرسلته أمه لمناصرة الإمام في حربه الجمل، وقد بعثت معه رسالة إلى الإمام علي عليه السلام تقول فيها: (ولولا أن الجهاد موضوع عن النساء لجئت فجاهدت بين يديك، هذا ابني عديل النفس فاستوصِ به خيراً يا أمير المؤمنين !).

ولاه الإمام علي عليه السلام البحرين، وكان عمر بن أبي سلمة ممن يُحسن الإدارة والمشورة، فلما عَزِمَ الإمام مُلاقاة معاوية بن أبي سفيان في صفين أرسل في طلبه[1]، وعين بدلا منه على البحرين نُعمان بن عجلان.

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه لعمر بن أبي سلمة: (أما بعد فإني قد وليتُ النعمان بن عجلان الزرقى على البحرين ونزعتُ يدك بلا ذمٍّ لك ولا تثريبٍ عليك، فلقد ←

وكانت رسالة الإمام أمير المؤمنين إليه شاهدةً على مدى إخلاص الرجل وصدقه وأمانته، وأن الإمام كان يستأنس بوجوده، ويستعين بآرائه في محاربة عدوه معاوية.

○ **قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري:**

قيس بن سعد من خيرة من كان يعتمد عليهم الإمام علي عليه السلام ومن خريجي مدرسته، عالم جليل ومجاهد عظيم، تميز بوفرة عقله، وحسن تدبيره للأمور، أوتي بسطة في الجسم، وقيل إن له طولاً فارعاً مُلفتاً للنظر.

اشتهر بكرمه إذ كان يستدين ويطعم الفقراء، ولاه الإمام علي عليه السلام ولاية مصر سنة ٣٧ هـ.

كان معاوية بن أبي سفيان يتمنى أن يكون إلى جانبه، فأخذ يدبر المؤامرات تلو الأخرى كي يكون معه ويخرج على الإمام، فكتب له عدة رسائل يدعوه بها إلى الانضمام إليه، فلما يئس أشاع بين الناس بالشام أن قيساً قد بايعه وأخلص له[1]، فلما بلغ الإمام علي عليه السلام ذلك شق عليه ذلك.

← أحسنتَ الولايةَ وأديت الأمانةَ، فأقبل غير ظنينٍ ولا ملومٍ ولا مُتَّهم ولا مأثوم. فلقد أردتُ المسير إلى ظلمةِ أهل الشام وأحببت أن تشهدَ معي، فإنَّك ممَّن أستظهِرُ به على جهادِ العدُوِّ وإقامةِ عمودِ الدِّين إن شاء الله) نهج البلاغة: الكتاب ٤٢.

(١) كتب معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد يدعوه إليه والخروج على الإمام علي عليه السلام فأجابه: (من قيس بن سعد إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد، فالعجب من استسقاطك رأيي، والطمع في أن تسومني ـ لا أبا لغيرك ـ الخروج من طاعة أولى الناس بالأمر، وأقولهم بالحق وأهداهم سبيلا، وأقربهم من رسول الله وسيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك وطاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور، وأضلهم ←

الإصلاح الاجتماعي وإلغاء الطبقية:

كان من أوائل المفاهيم التي سعى القرآن الكريم والسنة النبوية لتغييرها المفهوم السائد للكفاءة بين أبناء البشر. يقول الله تعالى: ﴿ ..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

ويقول النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: (لا فرق بين عربي أو أعجمي إلا بالتقوى)[1].

عندما نقرأ هذه الآية الشريفة والحديث النبوي نستطيع أن نستخلص منها أمرين:

ـ **الأمر الأول**: أن الناس سواسية وكلهم وإن افترقت مذاهبهم وألوانهم وقبائلهم فهم ينتمون إلى نفس الأب « آدم » ونفس الأم « حواء ».

ـ **الأمر الثاني**: أن المعيار الأساسي للتفضيل في جميع شئون الحياة عند الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو معيار التقوى، لا شيء أخر.

ولذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يفضل أي أحد من أصحابه ومن جلسائه إلا على أساس التقوى، أكان عربياً فصيحاً أو أعجمياً، أسود أم أبيض،

← سبيلا، وأدناهم من رسول الله وسيلة، ولديك قوم ضالون مضلون، طواغيت من طواغيت إبليس..).

فلما أتى معاوية كتاب قيس أيس وثقل مكانه عليه، وكان أن يكون مكانه غيره أحب إليه، لما يعلم من قوته وتأبيه ونجدته، واشتداد أمره على معاوية، فأظهر للناس أن قيسا قد بايعكم فادعوا الله له، وقرأ عليهم كتاباً اختلقه ونسبه إلى قيس.

انظر شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، ج ٦ ص ٦١، بتصرف.

(١) موسوعة المصطفى والعترة: للحاج حسين الشاكري، ج ١٢ ص ٩٨.

أكان غنياً فاحش الثراء أم فقيراً مدقع الفقر، أكان حراً شريفاً أم عبداً مولى.

وكان هذا النهج هو المعهود في زمن النبي ﷺ وزمن الخليفة الأول أبي بكر، حتى إذا كان زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب سن قوانين محدثة طمست بعض معالم ذلك النهج القرآني في المساواة، وأصبح الإنسان المسلم ليس كغيره من المسلمين، وإنما يعامل بحسب ما ينتمي إليه من قومية ونسب وغيره.

ومن أهم ملامح العنصرية في عهد الخليفة الثاني عمر:

- **تفضيله العرب على سواهم:**

بالنسبة لسياسته في تفضيل العرب فإنها مشهورة، وتنقل عنه كثير من الكلمات التي ترسم لنا هذا الخط بوضوح، كقوله: (ليس على عربي ملك) [1]، وقال في موضع أخر: (إنه لقبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسع الله عزّ وجل، وفتح الأعاجم) [2].

وكأنه يأسى أن يكون على عربي ملك، بينما يستحل ويدعو إلى استملاك الأعاجم ممن لا ينطقون العربية. وله وصية يأمر فيها بعتق كل عربي من أموال بيت مال المسلمين، بينما لا يمكن للأعجمي أو ذي الأصول الغريبة على اللسان العربي أن يستفيد من هذه الميزة [3].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج ٢ ص ٥٤٩.

(٢) الكامل في التاريخ: لابن الأثير ج ٢ ص ٣٨٣.

(٣) انظر المصنف: للصنعاني، ج ٨ ص ٣٨١.

- **تحريم دخول المدينة على غير العرب:**

كان عمر لا يترك أحداً من العجم يدخل المدينة، وحين كلمه ابن عباس في ذلك عنفه، وقال فيما قال لابن عباس: إن شئت فعلت ـ أي قتلناهم ـ، فقال له ابن عباس: كذبت، بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم، وحجو حجكم[1].

- **زيّ الأعجمي لا تخب أن يكون كزي العربي:**

كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى بعض عمّاله: (.. وإياكم والتنعم وزيّ العجم ..)[2].

وكان هذا التمايز في اللباس لم يكن متعارفاً قبل عهد عمر بن الخطاب، فكان كل أناسٍ يلبسون حسب ما اعتادوه في بلدانهم وعاداتهم، حتى إذا جاء عهده أمرهم بأن يتجنبوا لباس الأعاجم.

- **تفضيله بالعطاء:**

منذ بدايات خلافة عمر بن الخطاب فرق في العطاء، وبدّل فيه، فكانت بداية الطبقية في المجتمع الإسلامي، فجعلها ضمن طبقات متعدّدة، الأكثرية منهم أعطياتهم ضئيلة، والأقلية منهم أعطياتهم كثيرة. ففضّل مهاجري بدر على غيرهم وفضَّل السابقين على اللاحقين.

ويذكر بعض المؤرخين أنه لما جاء زمن خلافة عمر رأى أن لا يجعل

---

(١) انظر تاريخ دمشق: لابن عساكر، ج ٤٤ ص ٤١٧.

(٢) السنن الكبرى: للبيهقي، ج ١٠ ص ١٤.

من قاتل بعد رسول الله ﷺ كمن قاتل معه، فجعل الامتياز بحسب السابقة، فالذي قاتل يوم بدر يفضل عمن سواه ممن قاتل في فتوح العراق والشام. ومن هنا حدث التفاوت الملموس في الأعطيات وتشكل في طبقات ومراتب، فطائفة تأخذ عطاءً كبيراً، وأخرى عطاءً متوسطاً، والأكثرية يأخذون عطاءً ضئيلاً.

هذا التنظيم أوجد تمايزاً طبقياً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعدة ذات طبقات متعددة، بعد أن كانوا سواسية في نظر الإسلام[1].

- **لا كفاءة في الزواج بين العربي والأعجمي والموالي:**

نهى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عن تزويج الأعجمي والموالي من المرأة العربية، وقال: (لأَمنعن فروجهن إلا مَن الأَكْفاء)[2].

وقد انعكس هذا النهج على الفقه السني بشكل واضح، فنرى أن الأحناف يرون (قُريش بعضهم أَكفاء لِبعض، ومن كان له أبوان في الإسلام فَصَاعدا مِن المَوَالِي، فَهم أكفاء)[3].

---

(١) كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى عماله وولاته على العواصم الإسلامية يذكرهم بمنهجه في العطاء وأن الناس على قدر أنسابهم؛ فلما انقضت العرب ذكر العجم.
انظر اقتضاء الصراط المستقيم: لابن تيمية ص ١٥٩.

(٢) ويروي البيهقي في معرفة السنن والآثار: ج ٥ ص .٢٥٩ مقولة للخليفة عمر: (لأمنعن لذوات الأحساب فروجهن إلا من الأكفاء).
ويروي عن ابنه قوله: (العرب بعضها أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة، ورجل برجل، والموالي أكفاء لبعض، قبيلة بقلبيلة، ورجل برجل، إلا حائك أو حجام).

(٣) الإسلام والمشكلة العنصرية: لعبدالحميد العبادي، ص٦٧

وقد أفتى بعض الشافعية والأحناف بأن (العجم ليسُو أكفاء للعرب).

وقال ابن رشد في كتابه بداية المجتهد: قال سفيان الثوري وأحمد: (لا تزوج العربية من مولى).

وقال أبو حنيفة وأصحابه: (لا تزوج قرشية إلا من قرشي، ولا عربية الا من عربي) [1].

وزعم الأصمعي أنه سمع أعرابياً يقول لآخر: أترى هذه العجم تنكح نساءنا في الجنة ؟! قال: أرى ذلك والله ـ بالأعمال الصالحة ـ، قال: توطأ ـ والله ـ رقابنا قبل ذلك[2].

الإمام علي عليه السلام وإلغاء الطبقية:

لم يقف نهج الخليفة عمر بن الخطاب في التفرقة العنصرية بين المسلمين تبعاً للقوانين التي سنها في ظل خلافته وإنما امتدت إلى خلافة عثمان بن عفان، فكان لزاماً على الإمام علي عليه السلام بعد أن آلت إليه الخلافة أن يقوم بمحاولة الوقوف في وجه هذا الامتداد الذي يطمس معالم النهج القرآني.

ألغى الإمام علي عليه السلام جميع تلك القوانين التي سنها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وعمل بها الخليفة عثمان، ويتضح ذلك جلياً من خلال سيرته، فلم يكن الإمام يميز أحداً على الآخر، لا في العطاء ولا في غيره، بل لا اعتبارات لديه لأي إنسان غير تقوى الله وقربه منه.

---

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لابن راشد القرطبي، ج ٢ ص ٣٥١.

(٢) الموطأ: لمالك بن أنس، ج ٣ ص ٦٠، والغدير ج ٦ ص ١٨٧.

يذكر المغيرة بن شعبة وكان يظن أنهُ يذم الإمام علي عليه السلام بهذا القول: أن علياً أميل إلى الموالي وألطف بهم، وكان عمر أشدّ تباعداً منهم[1].

وسئل في موضع آخر عن جواز تزويج الموالي بالعربيات ؟ فقال الإمام: (تتكافأ دماؤكم ولا تتكافأ فروجكم !!)[2].

وقد أتى الموالي الإمام علي عليه السلام فقالوا: نشكو إليك هؤلاء العرب؛ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يعطينا معهم العطايا بالسوية، وزوّج سلمان وبلالاً وأبوا علينا هؤلاء، وقالوا: لا نفعل.

فذهب إليهم الإمام فكلمهم، فصاح الاعاريب: أبينا ذلك يا أبا الحسن، أبينا ذلك. فخرج وهو مغضب، يجر رداءه، وهو يقول: (يا معشر الموالي، إن هؤلاء قد صيروكم بمنزلة اليهود والنصارى، يتزوجون منكم ولا يزوجونكم ولا يعطونكم مثل ما يأخذون؛ فاتجروا بارك الله لكم)[3].

إقامته للحدود المعطلة:

في عصر الخلفاء السابقين للإمام علي عليه السلام كانت هنالك بعض الحدود المعطلة، وتختلف ظروف وأسباب تعطيلها، لكن يبقى أن جميع تلك الأسباب والمبررات لم تكن بالأسباب الكافية لتعطيل حد من حدود الله عز وجل. يقول الإمام علي عليه السلام في كلام له يبين أسباب قبوله للحكم، وفيها يذكر بعض أسبابه التي يرتئيها، ومنها تعطيل حدود الله: (.. اللهم

(١) الغارات: إبراهيم الثقفي، ج ٢ ص ٤٩٩.
(٢) انظر أنساب الأشراف: للبلاذري، تحقيق المحمودي، ج ٢ ص١٤١.
(٣) الأمالي: للشيخ المفيد ص ١٧٥ - ١٧٦.

إنك تعلمُ أنهُ لم يكنِ الذي كان مِنَّا منافسةً في سُلطانٍ ولا التِماس شيءٍ من فضول الحُطامِ، ولكن لنرد المعالم من دينكَ ونُظهرَ الإصلاح في بلادكَ، فيأمنَ المظلومون من عبادك وتُقَام المعطلة من حدودكَ..)[1].

ونذكر مثالاً على تلك الحدود المعطلة:

- **تعطيل الحد عن قاتل مالك بن نويرة:**

أرسل الخليفة الأول أبو بكر قائد جيوشه خالد بن الوليد لمقاتلة مالك وقومه لما امتنعوا عن دفع الزكاة إليه بذريعة الردة عن دين الإسلام.

ولما علم مالك بقدوم خالد أخلى له الديار وأمر أصحابه بالتفرق تجنباً للاقتتال. ولكن خالداً أرسل في إثرهم حتى جئ إليه بمالك ونفر من قومه فحبسهم عنده، ولما كان وقت الصلاة صلوا جميعاً بمن فيهم مالك ومن معه، ثم سيق مالك ومعه زوجته وأصحابه إلى خالد بن الوليد.

وبعد محاورات بين الفريقين، أصر خالد على قتل مالك وجماعته بالرغم من صلاتهم وكل تأكيداتهم له بإسلامهم، حتى أن مالكاً طلب من خالد أن يرسله إلى أبي بكر ليحكم بأمرهم، ولكن دون جدوى، حيث تم لخالد ما أراد من قتلهم، وقد أوعز بالمهمة إلى ضرار بن الأزور، فلما فرغ من قتل مالك دخل على زوجته بغير عقد ـ وكانت من أجمل نساء العرب ـ[2].

---

(١) نهج البلاغة، الكلمة ١٣١.

(٢) الحقيقة في هذه الحادثة أن مالكاً لم يرتد عن الإسلام وإنما رفض دفع الزكاة لأبي بكر لأنه ليس الخليفة الشرعي للنبي ﷺ وإنما الخليفة هو الإمام علي عليه السلام، أو أن الرأي كما قاله ابن قيم الجوزية: إن رفض دفع مالك وجماعته لم يكن بسبب ردة عن دين، وإنما ←

وكان عبد الله بن عمر وأبو قتادة الأنصاري من شاهدي تلك الواقعة، وقد كلما خالداً في أمر مالك قبل قتله، ولكنه كره كلامهما.

ومما يشير أيضاً إلى عظيم ما اقترفته يدا خالد، أن أبا قتادة أقسم أن لا يشارك بعد تلك الحادثة بجيش فيه خالد، وأما عمر بن الخطاب فقد ثارت ثائرته لفعل خالد وطالب الخليفة أبا بكر بإقامة حدي القتل والزنا عليه، وكان جواب الخليفة له بالرفض بحجة أن ما فعله خالد يعد من التأول والاجتهاد وإن أخطأ فيه ؟! ثم قال: يا عمر ما كانت لأغمد سيفاً سله الله عليهم[1].

ولأن الخليفة عمر لم يقتنع باجتهاد خالد وتأويله ولا حتى بصفح أبي بكر عنه كانت أولى قراراته عندما تسلم الخلافة والحكم عزل خالداً عن قيادة جيش المسلمين والذي كان حينها في غمرة انشغاله بقتال الروم في الشام[2].

← لشبهة شرعية تخيلوا بها أن الرسول ﷺ بعد أن خاطبه الله سبحانه وتعالى بالآية: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ هو وحده المخول بجمع الزكاة منهم، ولما توفاه الله، أصبحوا في حل من دفعها.
انظر تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٢٧٦ - ٢٨٠. وأزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة: لأسعد وحيد.

(١) تاريخ أبي الفداء: ج ١ ص ١٥٨، وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج ٦ ص ١٤.

(٢) من العجيب أن الخليفة الثاني عمر لم يقم الحد على خالد وهو يرى اقترافه جريمة الزنا، وإنما اكتفى بعزله.

○ **تعطيل الحد عن المغيرة بن شعبة:**

يروي البلاذريّ في فتوحه[1]: أنَّ المغيرة جعل يختلف إلى امرأة من بنى هلال يُقال لها أمّ جميل بنت محجن بن الأفقم، وقد كان لها زوج من ثقيف يقال له الحجّاج بن عتيك، فبلغ ذلك أبا بكرة بن مسروح، وشبل بن معبد البجليّ، ونافع بن الحارث الثقفيّ، وزياد بن عبيد، فرصدوه، حتى إذا دخل عليها هجموا عليه، فإذا هُما عُريانان وهو متبطّنُها ! فخرجوا حتّى أتوا عُمر بن الخطاب فشهدوا عنده بما رأوا.

فأمر عمر أبا موسى الأشعريّ بأن يتولى أمر البصرة، ويُشخص المغيرة، ولما وصل أبو موسى أشخصهُ إلى المدينة، فلمّا صار إلى عمر جمع بينه وبين الشّهود، فقال نافع بن الحارث: رأيته على بطن المرأة يحتفز عليها، ورأيته يدخل ما معه ويخرجه كالميل في المكحلة.

ثمّ شهد شبل بن معبد على شهادته، ثمّ أبو بكرة، ثم أقبل زياد رابعاً. فلمّا نظر إليه عمر قال: أما إنّي أرى وجه رجل أرجو أن لا يُرجم رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على يده ولا يَخزى بشهادته.

فأمر عمر بالثّلاثة فجُلدوا. فقال شبل: أتجلد شهود الحقّ وتبطل الحدّ؟ فلما جلد أبو بكرة قال: أشهد أنّ المغيرة زانٍ. فقال عمر: حدّوه. فقال الإمام علي عليه السلام: إن جعلتها شهادة فارجمْ صاحبَك. فحلف أبو بكرة أن لا يكلّم زياداً أبداً، وكان أخاه لأمّه سميّة.

ثم إنّ عمر ردّهم إلى مصرهم بعد الجلد.

---

(١) فتوح البلدان: للبلاذري، ج ٢ ص ٤٢٣ بتصرف.

وبعد هذه الحادثة عين الخليفة الثاني عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة والياً على الكوفة بدلاً من جلده، وبعدما شهد عليه ثلاثة من الصّحابة بالزّنا.

- **تعطيل الحد عن عبيدالله بن عمر:**

لما قتل الخليفة الثاني عمر أخبرهم عبد الرحمن بن أبي بكر بأنه رأى الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة يتناجون، فنفروا منه فسقط من بينهم خنجر، فلما رأو الخنجر ظنوه أنه نفس الخنجر الذي قُتل به الخليفة عمر، فخرج عبيد الله بن عمر مشتملاً على السيف حتى أتى الهرمزان وطلب منه أن يصحبه حتى يريه فرساً له، وكان الهرمزان بصيراً بالخيل، فخرج يمشي معه، وحانت منه غفلةً قتله على أثرها عبيد الله بالسيف، فلما وجد حر السيف صاح: (لا إله إلا الله).

ثم أتى جفينة وكان نصرانياً فقتله، ثم أتى بنت أبي لؤلؤة وكانت جارية صغيرة فقتلها، فقُبض عليه ـ أي عبيدالله بن عمر ـ وسجن ولم يقم عليه حد القتل.

إلى أن تولى عثمان بن عفان الخلافة فاستشار الصحابة في أمره، فأفتى بعضهم بقتله، والبعض الآخر بالدية، فأدى عثمان الدية وأطلقه[1].

ولما تولى الإمام علي عليه السلام الخلافة أراد أن يقتص منه بقتله الرجلين والجارية دون بينة حقة، فهرب عبيد الله بن عمر إلى الشام وانضم إلى

(١) كان الإمام علي عليه السلام يقول أكثر من مرة: (لو قدرت على عبيدالله بن عمر ولي سلطان لاقتصصت منه). انظر الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد، ج ٥ ص١٦.

معاوية، وشارك في موقعة صفين ضد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقتل فيها سنة ٣٧ هـ.

- **معاوية ودية القتلى:**

قال ابن كثير[1]: مضت السنة منذ زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن دية المعاهد كدية المسلم، وكان معاوية أول من قصرها إلى النصف وأخذ النصف لنفسه.

هذه الشواهد وأخرى كثيرة تنبئ عن وجود تهاون بشكل وآخر في تطبيق حدود الله في ظل أوائل من استلم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على دولته، سواءً أكان اجتهاداً شخصياً منهم، أم رأياً انحازوا إليه يبقى أن الحكم والقصاص الصادر من الله في حق من ارتكب الجريمة لم ينفذ على صعيد الواقع، وظل معلقاً معطلاً فترةً من الزمن.

الإمام علي عليه السلام وحدود الله:

الإمام علي عليه السلام لم يكن مستعداً أن تكون حدود الله معطلة ولو كان القصاص من أحد أقاربه أو معارفه، ولو كلفه أن يخسر منصب الحكم والخلافة.

يقول الإمام علي عليه السلام في معاتبة أحد ولاته وتحذيره بالعقوبة لو أنه ارتكب اختلاساً من بيت مال المسلمين: (ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت، ما كانت لهما عندي هوادةٌ، ولا ظفرا مِنِّي بإرادة،

(١) البداية والنهاية: ج ٨ ص ١٤٨.

حتى آخُذَ الحقَّ منهما، وأزيح الباطل عن مظلمتهما)[1].

ونلاحظ أن هذا المنطق هو ذات منطق النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول: (يا أيها الناس، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[2].

فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام كانا يضربان المثل بأقرب المقربين لهما ـ وهو أبلغ في التحذير والنصح ـ ليكون هذا المثال رادعاً عن ارتكاب المسلم للمحارم وعدم قبول شفاعة الشافعين في تعطيل تلك الحدود، وإلا فإن القصاص الذي أقره الله في كتابه هو جزاؤه.

- **إقامة الحد على يزيد بن حجّية:**

من الهاربين لسرقته بيت مال المسلمين يزيد بن حجّية[3] والي الري ودستبى[4]، استحوذ على ثلاثين ألف درهم من بيت المال، وعندما طالبه الإمام بالنقص إثر محاسبته أنكر ذلك، فجلده وسجنه، ففرَّ من السجن والتحق بمعاوية بن أبي سفيان.

---

(١) نهج البلاغة، الكتاب رقم ٤١.

(٢) المحلى: لابن حزم: ج ١١ ص ٣٢٦.

(٣) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد: ج ٢ ص ٢٦٢.

(٤) دَستُبَى: بلدة تقع إلى الغرب من مدينة طهران، وكانت واسعة بحيث تشمل ما بين قزوين وهمدان الحاليتين.
موسوعة الإمام علي في الكتاب والسنة والتاريخ: للريشهري ج ٧ ص ٤٥، نقلاً عن معجم البلدان.

- **إقامة الحد على مقيس بن عمرو (شاعر الكوفة):**

كان يلقب بمقيس النجاشي، كان من الدعاة لجيش الإمام علي عليه السلام بأشعاره، فكان يحمس الناس للقتال من جهة ويفضح معاوية وأصحابه ويبدي مخازيهم من جهة أخرى.

فلما كان منه ما كان من إفطاره في شهر رمضان وشربه للخمر حده الإمام علي عليه السلام كغيره من العصاة، ولم يمنع الإمام علي عليه السلام عن إقامة حد الله تعالى ما قدمه من خدمات، وبرغم انتسابه إلى قبيلة كبيرة (اليمانية)، وما كان منه إلا أن اعتزل الإمام علي عليه السلام والتجأ إلى معاوية[1].

إنشاؤه لديوان المظالم:

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أول من أسس ديواناً لمظالم الناس، إذ إنه أراد من إنشائه لهذا الديوان أن يعطي المستضعفين حقوقهم، وخصوصاً الضعفاء الذين لا يستطيعون الوصول إلى الخليفة وبث شكواهم من ظلم الولاة أو القضاة أياً كان منصبه بالدولة، حيث كان موظفو هذا القطاع يتمتعون باستقلالية وحصانة لعدم خضوعهم لأي سلطة سوى الخليفة مباشرة.

ولأن أي دولة مهما كانت عدالة رئيسها لابد أن يتخللها بعض الظلم من هنا أو هناك، وخصوصاً أن أطراف الدولة الإسلامية في اتساع دائم، من إفريقيا إلى الشام، إلى أطراف اليمن، والمدن الكبرى الإسلامية؛ لذا أتت فكرة إنشاء الإمام ديواناً للمظالم، حيث كان الهدف من إنشائه أن يحد

(١) موسوعة الإمام علي في الكتاب والسنة والتاريخ: للريشهري، ج ٧ ص ٣٧ ـ بتصرف.

من التجاوزات الكثيرة التي عايشها في زمن الخلفاء من قبله، وأما الوظائف التي أسسها لها:

١. النظر في الشكاوى التي يرفعها الرعية ضدّ الولاة والحكّام وعمال الجباية إذا انحرفوا عن طريق الحق وجاروا على الرعية، وسلبوا حقوقهم المادية والمعنوية.
٢. محاسبة كتّاب الدواوين لأنّهم الأمناء على بيوت الأموال فيما يستوفونه وما ينفقونه.
٣. مراعاة إقامة الشعائر الدينية والعبادات كالصلاة والأعياد والحج والجهاد.
٤. النظر في مظالم موظفي الدولة، وإدارة الأوقاف العامة والخاصة.
٥. رد ما غصبه الظالمون إلى المظلومين والمستضعفين.
٦. تنفيذ الأحكام الصادرة من القضاة والمحتسبين؛ لأن والي المظالم أقوى يداً وأنفذ أمراً من غيره من الولاة والقضاء.
٧. محاسبة العمّال وغيرهم من كبار الموظفين إذا شذّوا في سلوكهم، ولم يؤدّوا واجباتهم بالشكل المطلوب[1].

(١) سيرة الإمام علي: نجاح الطائي، ج ٦ ص ٩ نقلاً عن النظم الإسلامية: ص ٣٢٥ بتصرف.

تغييره لعاصمة الدولة الإسلامية:

عند رحيل الرسول الأعظم ﷺ إلى الرفيق الأعلى بقيت المدينة المنورة هي المركز الأهم والعاصمة الأولى للأمة الإسلامية، وكانت أمور هذا المركز ـ المدينة المنورة ـ في هبوط مستمر، وذلك لأنها ابتعدت عن سنة رسول الله ﷺ وازدادت بعداً عن منهجه.

فلو تتبعنا وضع المدينة بالعهد الأول، واعني به عهد أبي بكر لوجدنا بعضاً من المخالفات الإسلامية، حتى إذا جاء عهد عمر بن الخطاب ازداد الاتساع، فسُنت سنن وعمل بها لم تكن من السنة النبوية في شيء، وحرم كتابة الحديث النبوي بحجة عدم اختلاطه بالقرآن الكريم، بالرغم من أنه المنهج والدستور الذي لابد لهذه الدولة من المضي على هداه.

وحين جاء العهد الثالث عهد الخليفة عثمان بن عفان، جعل عهده عهد امتيازات وأطماع، فطمع كل من كان بالمدينة وبحسب قربه ومكانته بقلب الخليفة بامتيازات وأطماع مالية وأخرى دنيوية أكسبت بعضاً هيبة ووجاهةً ولم يكن في العهد النبوي شيئاً مذكوراً.

كل هذه الظروف أكسبت البعض بعض الميزات التي جعلتهُ يناهض قيام دولة إسلامية تعود به إلى نبعه الأصيل، فيخسر تلك الميزات وتلك الظروف التي تساعده على القيام بما يريد، في مقابل وضع يعيده إلى عهدٍ كان يراه جاثماً على صدره، من منعه من المنكرات إلى عدم إعطائه الأموال وجعله في مصاف الأثرياء وبعد أن كان فقيراً معدما.

كل هذه الأسباب جعلت من هؤلاء القوم يقفون موقف المعارضة

والعصيان، والتمرد على الخلافة الجديدة.

عندما تسلم الإمام علي عليه السلام زمام الخلافة واجه مشاكل كثيرة كان منها مشكلة الولاة ومشكلة الانحراف الاقتصادي، وأحد تلك المشاكل هي اختياره مركزاً يستطيع أن يستوعب حجم المشاكل التي سيواجهها مع خصومه ومن يريد أن يناهض دولته التي لا يريد بها أن تنزلق في الحيف عن الحق. نعم.. المدينة المنورة هي المركز السياسي للأمة الإسلامية آنذاك، وكان بها جلّة الأنصار والمهاجرين، ومن صفوة وخيرة الصحابة، كما أنها تعتبر مركز القداسة النبوية، وبها توالت الخلافة أكثر من خمس وثلاثين سنة، فلِمَ عدل الإمام عليه السلام عن المدينة ليختار مدينة الكوفة مقراً لحكومته ومنطلقاً لتحركاته ؟

هل كان أمراً عفوياً، أم كان أمراً مدروساً، ذا أبعاد واعتبارات جعلته يسارع لنقل مركز قيادته للكوفة ؟

بالطبع لا نستطيع أن نقول إن هذا الأمر كان أمراً عفوياً، لاعتقادنا المسبق أنه معصوم، وأن كل تحركاته عليه السلام كانت لها أهداف وفق الضوابط الإسلامية، والتي تساعده على اختيار أفضل الخيارات مقارنة بالظروف التي يعيشها.

ولذا نجد أن الإمام عليه السلام لم يقدم على أمر منطلقاً من مصلحة دنيوية، أو مكر سياسي وإن اختلفت مسمياته في هذا العصر، بل من ضوابط رسالية قد تغيب عنا أسبابها وقد نتلمس بعضاً منها من خلال مواقفه عليه السلام، أو من خلال دراستنا للتاريخ الذي عايشه.

لهذا نستطيع أن نحدد بعض الملامح التي جعلت الإمام علياً عليه السلام يختار الكوفة مركزاً لعاصمة خلافته بدلاً من المدينة المنورة، باستعراضنا أسباب عزوفه عليه السلام عن المدينة المنورة أولاً، ومن ثم استعراض القيمة التي جعلت من مدينة الكوفة عاصمة للدولة الإسلامية.

أسباب عزوف الإمام عن المدينة المنورة:

ـ **السبب الأول**: أن المدينة المنورة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية تستطيع أن تتحمل أعباء المواجهة العسكرية إن اضطر الإمام عليه السلام إلى المواجهة.

ويمكننا أن نتلمس عمق هذا السبب بأن نتذكر أن أحد العوامل التي أوجبت فشل ثورة محمد بن عبدالله بن الحسن على المنصور، رغم أنه كان قد بويع له في أغلب عواصم البلدان الإسلامية هو ابتداء تحركاته من قلب المدينة المنورة.

يلخص المسعودي ما جرى في مروجه[1]: (ولما ظهر محمّد بن عبدالله بالمدينة دعا المنصور إسحاقَ بن مسلم العقيلي، وكان شيخاً ذا رأي وتجربة، فقال له: أَشِرْ عليَّ في خارجي خرج عليّ ؟.

---

(١) مروج الذهب: للمسعودي، ج ٣ ص٢٩٥.
وينقل البلاذري في أنساب الأشراف ج ٣ ص ١٠٤: عن المنصور قوله لمسلم بن قتيبة عندما قيل له قد خرج محمد بن عبدالله بن حسن بالمدينة ـ ثائراً ـ، قال: (ليس بشيء، خرج بأرض ليس بها حلقة ولا كراع).
وقيل له خرج إبراهيم بالبصرة، فقال: (قد خرج بأرض لو شاء أن يقيم بها سنة يبايعه كل يوم ألف رجل، ويضرب له فيها كل يوم بألف سيف، لا يعلم به أحد يمكنه ذلك).

قال: صِف لي الرجل. قال: رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ذو علم وزهد وورع. قال فمَن تبعه ؟. قال: وُلْد عليّ، وولد جعفر وعقيل، وولد عمر بن الخطاب، وولد الزبير بن العوام، وسائر قريش، وأولاد الأنصار. قال له: صف لي البلد الذي قام به، قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع، ولا تجارة واسعة.

ففكر ساعة، ثمّ قال: اشحَنْ يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال. فقال المنصور في نفسه: قد خَرق الرجل، أسألهُ عن خارجي خرج بالمدينة، يقول لي: اشحن البصرة بالرجال. فقال: انصرف يا شيخ !.

ثمّ لم يكن إلاّ يسيراً حتّى ورد الخبر: أنّ إبراهيم قد ظهر بالبصرة. فقال المنصور: علَيّ بالعقيلي. فلمّا دخل عليه أدناه، ثمّ قال: إنّي كنت قد شاورتك في أمرِ خارجي خرج بالمدينة، فأشرت علَيّ أن أشحن البصرة بالرجال، أوَ كان عندك من البصرة علم؟! قال: لا، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلّف عنه أحد، ثمّ ذكرت لي البلد الذي هو فيه، فإذا هو ضيّق لا يحتمل الجيوش، فقلت: إنّه رجل سيطلب غير موضعه..).

ـ **السبب الثاني**: إن المدينة لم تكن شديدة الولاء للإمام علي عليه السلام، ولا منشدّة إلى تطبيق مبادئه، بل نجد أن المدينة المنورة مليئة بالأمويين ومحبيهم، ومن استفاد من الخلافة السابقة لخلافته من ذوي الأطماع.

بالإضافة أن إلى وجود أُناس كثر ممن كانت لهم نقمة على الإمام علي عليه السلام خاصة، لوتره أقاربهم إبان حروب النبي ﷺ وغزواته، لهذا نجد أن الإمام زين العابدين عليه السلام يصرح في بعض أقواله: (ما بمكة والمدينة

عشرون رجلاً يحبنا)[1].

فإذا كانت المدينة مركزاً وعاصمة للخلافة وهي بالوقت نفسه غير موالية له فإنها وبكل تأكيد ستكون عرضةً إلى التمزق من الداخل، ومن السهل على من يريد أن يستهدف الخلافة أن يجند الخونة لصالح القيام بالثورة والإطاحة بالحكومة القائمة، وهذا هو عينه ما واجهه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حربه ضد المشركين من دسائس يهود المدينة، والذين كانوا يعيشون بها ولم يكن ولاؤهم له.

بالإضافة إلى أن الإمام عليه السلام كان بموقف أكثر حرجاً، حيث أن اليهود هم عدوٌ ظاهر، وهم يعيشون في المدينة بمعزل عن الحياة المعيشية للمسلمين، ولذا سهلَ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مراقبة تحركاتهم، بينما هؤلاء الذين يقطنون المدينة هم يهددون أمن الدولة من الداخل، فهم مُطّلعون على أدق التفاصيل اليومية لتحركات الإمام علي عليه السلام، كما يصعب تمييزهم ومعرفة العدو فيهم من الصديق، كما يسهل بث الجواسيس بالمدينة مما يساعدهم على إسقاطها من الداخل قبل المواجهات العسكرية من الخارج.

ـ **السبب الثالث**: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة، والتي تساعد على تأمين احتياجات الجيوش والحامية العسكرية لمركز الدولة، وخصوصاً أنها أرض صحراوية، ليس بها أراضٍ زراعية تؤمن المؤنة اللازمة، ولا الحركة التجارية الواسعة والتي يمكن الاعتماد عليها.

وأكبر شاهد على هذا ما نقلناه من وصف الشيخ للمنصور، حيث

---

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي، ج ٤ ص ١٠٤.

قال له لما أراد أن يصف المكان الذي خرج منه، قال: ليس به زرع، ولا ضرع، ولا تجارة واسعة. أي أن المكان الذي خرج منه لا يستطيع أن يتحمل مؤنة الجيش، بالإضافة إلى عدم استطاعته احتواء كم كبير من الرجال.

ـ **السبب الرابع**: أن الجيل الجديد بالمدينة المنورة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطاحنة التي خاضها الإمام علي عليه السلام، بل اعتاد على حياة الأمن والرخاء، واعتمدوا في حياتهم على الأعطيات والهبات التي يغدق بها عليهم الخلفاء الذين سبقوا الإمام علي عليه السلام، حتى أصبح من الصعب عليهم التخلص من أجواء الدعة والعيش الهنيء، إلى أجواء تتطلب التضحية بأنفسهم والتعرض للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب بالعادة.

ـ **السبب الخامس**: كان الإسلام جديداً على العراق، وكانت العادات القبلية والتعصب الجاهلي لا تزال تتحكم في روابطه وعلاقاته الاجتماعية في داخله وخارجه، وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموماً لا للإيمان والعقيدة.

وكانت المدينة أبعد عن ذلك ولو بشكل محدود فكان من السهل على أعداء الخلافة أن يستميلوا أهل العراق بالأموال وغيرها، علماً بأن الثقل الأكبر للحامية العسكرية والاقتصادية كانت بالعراق، فإن أصبحت بيد أعدائه كمعاوية وغيره لأصبح موقف الدولة موقفاً حرجاً جداً.

لذا كان لابد من تدارك هذا الأمر والمحافظة على هذا المركز بيد الإمام علي عليه السلام ودولته، ثم استغلال موارده الاقتصادية وكثافة قدراته

العسكرية في القضاء على الفتن، والعصاة من الولاة، وتوظيفها لصالح إقامة دولة الحق.

أسباب اختيار الإمام الكوفة عاصمة لدولته:

هذا من جهة عدم ملائمة المدينة المنورة لمركز الخلافة العلوية، أما من جهة ملائمة الكوفة لذلك فنذكر الآتي:

ـ **السبب الأول**: إن الكوفة تعتبر أكبر حامية عسكرية في ذلك الوقت، حتى سميت بكوفة الجند[1]، فكانت منطلقاً لكافة الفتوحات الإسلامية بعدما تم فتحها من قبل ابن العاص.

فالكوفة من أكثر المُدن عدداً للسكان، حيث يذكر الحموي في معجمه[2] أن عدد سكان الكوفة: خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر، وأربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب، وستة آلاف دار لليمن[3].

إذن هذا العدد المهول من السكان مقارنة مع أي مدينة أخرى يعطي سبباً وجيهاً لنقل عاصمة الخلافة لها، حيث بالإمكان تأمين الكمية الكافية من الجيوش لمواجهة أي تحدٍ مهما كان كبيراً أو صغيراً، سواءً أكان داخلياً

---

(١) انظر معجم البلدان: للحموي، ج ٤ ص ٤٩٢.

(٢) معجم البلدان: للحموي، ج ٦ ص ١٥٠٥ ـ نسخة إلكترونية ـ.

(٣) لو جمعنا عدد دُور مدينة الكوفة بحسب رواية الحموي = ٥٠.٠٠٠ دار من ربيعة + ٢٤.٠٠٠ دار لسائر العرب + ٦٠٠٠ دار لليمنيين، فالنتيجة تكون: ٨٠.٠٠٠ دار.
وإذا افترضنا أن معدل المتوسط لأفراد الأسرة لكل بيت = ٥ أشخاص، فالنتيجة تكون: ٥٥.٠٠٠×٥ أشخاص = ٤٠٠.٠٠٠ شخص.

من الولاة المعزولين كمعاوية بن أبي سفيان، أم كان ذلك الخطر خارجياً كتربص الروم الفرصة للنيل من الإسلام بعدما ظهرت علامات الانشقاق فيما بينهم.

ـ **السبب الثاني**: إن مدينة الكوفة هي المدينة القادرة على تمويل الدولة اقتصادياً، حيث أُنشأ بها دارٌ للرزق، وكان يجمع في هذه الدار متاع المقاتلة أولاً، ثم أصبحت دار مضاربة اقتصادية، وقد لعبت هذه الدار دوراً مهماً في إنعاش الكوفة اقتصادياً.

وقد أتقنت الكوفة عمل الصيرفة ونظمته على شبه البنوك بالعهد الحديث. وكانت هي الواسطة الوحيدة بين فضة الفرس وذهب الرومان [1].

ـ **السبب الثالث**: قرب منطقة العراق من الشام بالنسبة إليها من الحجاز، فبالاستطاعة وبكل سهولة غواية ساكنيها، خصوصاً أن معاوية بن أبي سفيان قريب جداً منهم، وبيده الأموال الطائلة.

الإمام علي عليه السلام بنفسه يجيب أبا أيوب عندما سأله [2]، يقول: (.. صدقت يا أبا أيوب، ولكن الرجال والأموال بالعراق، وأهل الشام لهم وثبة أحب أن أكون قريباً منهم..).

ويقول الإمام عليه السلام عندما استنصحه عبدالله بن عباس أن يولي طلحة والزبير الكوفة والبصرة، قال له: (ويحك، إن العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضربا

(١) راجع كتاب: تاريخ الكوفة، للسيد حسين البراقي ص ١٤٧ـ ١٤٨.

(٢) الفتوح في التاريخ: لابن أعثم، ج ٢ ص ٢٦٨، والأخبار الطوال: للدينوري، ص ١٤٣.

الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان)[1].

وينقل ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج أن معاوية عندما علم بمبايعة المدينة للإمام علي عليه السلام كتب إلى الزبير يطمعه بالخلافة، ويرغبه بالكوفة والبصرة: (.. لعبدالله أمير المؤمنين الزبير؛ من معاوية بن أبي سفيان. سلام عليك أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصرين ..)[2].

وهكذا يتضح أن الإمام علي عليه السلام لم يتخذ مدينة الكوفة عاصمة لخلافته إلا لاعتبارات إستراتيجية وعسكرية ولم يكن أمراً عفوياً مرتجلاً، بل لرؤيته أن مدينة الكوفة هي أفضل المدن لتكون عاصمة للخلافة الإسلامية.

(١) الإمامة والسياسية: ج ٢ ص ٥٢، وحياة الإمام الحسن: للقرشي، ج ١ ص ١٧٧.
(٢) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ١ ص ٢٣١.

نتائج أدوار الإمام علي السياسية

الأدوار التي خاضها الإمام علي عليه السلام في محاولته لإعادة الدولة الإسلامية إلى نهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان لها ردة فعل واسعة، خصوصاً بين المنتفعين من كبار القوم ووجهائهم، بينما تمسك بعضٌ ممن حول الإمام بمنهجه الذي قام به لإيمانهم أنه هو الحق ولا شيء سواه.

لم يكن من السهل أن يحاول الإمام علي عليه السلام أن يغير الواقع من جذوره، لاسيما أن كثيراً من الأمور قد ألفها الكبار وتربى عليها الصغار، بل إنه كان طوال فترة الخلافة التي تناوب عليها أبو بكر وعمر وعثمان مغيباً عن الساحة السياسة، فأضافت إلى صعوبة تغييره للواقع حجراً في طريقه لا يقل عن مواجهته لخصومه وأعدائه.

تغييره للواقع الفاسد واستبداله بالأنموذج الأمثل للقيادة هو العنوان الأصلح لمجمل ما قام به الإمام علي عليه السلام، ولكن هذا التغيير كلفه الكثير من المعاناة، وساق إليه نتائج كانت هي المتوقعة لمثل هذا التصادم، بين من يطلب الحق وبين من يطلب الدنيا وملذاتها بغضب الله ومعصيته.

ولا شكل بأن مثل هذه السياسة الحازمة والأصيلة نتج عنها بعض ردود الأفعال والنتائج المتباينة وسط المجتمع الإسلامي آنذاك، منها:

هروب الخونة واللصوص من دولته:

أوجد معاوية بن أبي سفيان حصناً لكل من لم يتحمل مرارة الحق على يدي الإمام علي عليه السلام، وكأنه يستقوي بباطله بهم على الإمام، بينما كانت ردة فعل الإمام علي عليه السلام إزاءهم هي عدم المبالاة، إذ إنهم لم يهربوا من باطل ولم يركنوا إلى عدل.

يقول الإمام علي عليه السلام في رسالة منه إلى واليه سهل بن حنيف، وقد بلغه أن أعداداً من أهل المدينة هربوا إلى معاوية بن أبي سفيان بالشام:

(أما بعد فقد بلغني أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيا ولك منهم شافيا فرارهم من الهدى والحق وإيضاعهم إلى العمى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ومهطعون إليها قد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة فهربوا إلى الأثرة فبعدا لهم وسحقا إنهم والله لم ينفروا من جور ولم يلحقوا بعدل وإنا لنطمع في هذا الأمر أن يذلل الله لنا صعبه ويسهل لنا حزنه، إن شاء الله والسلام)[1].

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٧٠.

○ هروب مصقلة بن هبيرة:

عند خروج الخريت بن راشد من بني ناجية ـ وهو ممن نقم على الإمام علي عليه السلام إثر التحكيم بصفين يفسد في الأرض، وأخذوا يشيعون الرعب والفساد بين الناس، فبعث إليهم الإمام فرقة من جيشه لقتال الخريت وعصابته فأدركتهم في سيف البحر بفارس فقتل الخريت وقتل من معه، وسبوا من أدركوا منهم من نساء وصبيان، وكانوا خمسمائة أسير، فارتفعت أصواتهم بالبكاء واستغاثوا بمصقلة فرقَّ لهم، فاشتراهم من معقل قائد جيش الإمام عليه السلام بخمسمائة ألف درهم ثم أعتقهم، وأدى ثلث ثمنهم، واشهد على نفسه بالباقي، ثم امتنع عن أدائه، ولما ثقلت عليه المطالبة هرب إلى معاوية [1].

○ هروب القعقاع بن شور:

من اللصوص الهاربين القعقاع والي ميسان، قبض على بيت المال لترفه وملذّاته، وحين علم أن الإمام علي عليه السلام أطلع على ذلك، أخذ الأموال وذهب إلى معاوية، فكل لص أصبح من أهدافه سرقة أموال الناس والهروب إلى معاوية [2].

---

(١) انظر البداية والنهاية: لابن كثير، ج ١ ص ١٨٦.

(٢) قال الإمام علي عليه السلام: تسألوني المال ؟! وقد استعملت القعقاع بن شور على كسكر، فأصدق امرأة بمائة ألف درهم، وايم الله لو كان كفواً ما أصدقها ذلك. انظر الغارات: للثقفي: ج ٢ ص ٥٣٣.

○ **هروب النعمان بن العجلان:**

سرق النعمان بن العجلان مال بيت المسلمين بالبحرين، وكان والياً عليها من قبل الإمام، فلما علم الإمام علي عليه السلام كتب إليه يقرعه ويهدده[1]، فلمّا جاءه الكتاب، وعرف أنّه قد عَلِمَ بسرقته للمال لحق بمعاوية بن أبي سفيان.

ومن الملاحظ أن كل من هرب من دولة الإمام علي عليه السلام والتحق بمعاوية بن أبي سفيان يشترك مع غيره في أمور:

١. طلب المال، فإذا منعه الإمام علي عليه السلام من أخذ ما ليس حق له هرب إلى عدوه طمعاً فيه.
٢. سرق بيت مال المسلمين، فإذا كشفه الإمام علي عليه السلام هرب لمعاوية.
٣. الجرأة على حد من حدود الله، فإذا خاف أن يقيم الإمام عليه السلام القصاص العادل هرب لمعاوية.
٤. كره خلافة الإمام علي عليه السلام إما لأنها لا تلتقي ومصالحه ومكاسبه الدنيوية، أو لأنه يحمل في طيات قلبه كرها ونقمةً على الإمام علي عليه السلام إثر وتره أحد أقاربه في حروبه أيام حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام في كتابه إليه: (أمّا بعد؛ فإنّه من استهان بالأمانة ورغب في الخيانة، ولم ينزّه نفسه ودينه، أخلّ بنفسه في الدنيا، وما يُشفي عليه بعدُ أمر وأبقى وأشقى وأطول. فخِف الله ! إنّك من عشيرة ذات صلاح، فكن عند صالح الظنّ بك، وراجع، إن كان حقّاً ما بلغني عنك، ولا تقلبنّ رأيي فيك، واستنظف خراجك، ثمّ اكتب إليّ ليأتيك رأيي وأمري، إن شاء الله). مصباح البلاغة: للميرجهاني، ج ٤ ص ١٥٣.

المواجهات العسكرية:

المواجهات والمعارك التي خاضها الإمام علي عليه السلام كانت مما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم صراحةً، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في منزل أُمّ سلمة، فجاء علي عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أُمّ سلمة، هذا والله ـ ويشير إلى علي ـ قاتل القاسطين والناكثين والمارقين بعدي[1].

المعارك الثلاث (الجمل / صفين / النهروان) تعتبر من أكبر المعارك التي خاضها المسلمون ضد بعضهم، قتل خلالها آلاف منهم وجرح آلاف آخرون، مما كان له الأثر الكبير على استقرار حكومة الإمام علي عليه السلام.

الحديث عن هذه المعارك بتفاصيلها يحتاج إلى مؤلف خاص، لما تحتويه من تفاصيل لا يمكن لهذا البحث المختصر أن يضمه، لذا سأحاول أن أمر على تلك المعارك مروراً سريعاً وبشكل مختصر، ومن أراد الاطلاع تفصيلاً فليراجع الكتب التاريخية المختصة.

- **معركة الناكثين (الجمل)**[2]:

أبطال الرواية في هذه المعركة ثلاثة أضلاع المثلث: الزبير بن العوام[3]،

---

(١) انظر كنز العمّال: ج ٦ ص ١٥٤، وميزان الاعتدال: للذهبي، ج ٢ ص ٢٦٣. وقد وردت روايات كثيرة بنفس هذا المعنى.

(٢) تم نقل أحداث هذه المعركة وباقي المعارك بعد اختصارها من كتاب: الإمام علي سيرة وتاريخ، من إصدارات مركز الرسالة.

(٣) الزبير بن العوام ابن صفية عمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، من الأوائل الذين دخلوا الإسلام، وكان من الصحابة المشاركين غزوات النبي، وفي السقيفة وقف مع الإمام علي عليه السلام بناءً على وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعطى ماله وروحه في هذا الطريق، فأبغضه رجالات ←

وطلحة بن عبيدالله[1]، والسيدة عائشة[2] بنت أبي بكر زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

تعتبر معركة الجمل من المعارك التي شكلت اللبنة الأولى لانشقاق بعض من كانت لهم الاستفادة المباشرة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان من الأموال واقتطاع الأراضي، فلما ولي الأمر الإمام علي عليه السلام ظنوه سيكون كعثمان في تفضيله لهم وإعطائه الأموال حسبما تشتهي أنفسهم، فلما وجدوا الأمر على غير ما يشتهون أظهروا الولاء وأبطنوا الغدر حتى حانت ساعة المعركة.

← السقيفة المشهورين آنذاك، رشحه عمر بن الخطاب لمجلس الشورى السداسي.
أنجب ابنه عبدالله الذي نشأ في حضن خالته عائشة فربته على ما كانت عليه من بغض الإمام علي عليه السلام، فزاد تأثيره على أبيه الزبير وبدأ تراجعه عن نصرة الإمام عليه السلام. أصبح من المترفين مالياً بعدما أغدق عليه الخلفاء الثلاثة أموالاً طائلة كي ينصرف عن نصرة الإمام علي عليه السلام.

(١) طلحة بين عبيد الله من المهاجرين الأوائل، ويَعده أبناء السنة أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان تاجراً معروفاً، عده بعض المؤرخين ضمن من فر في معركة بدر وأحد وخيبر وحنين، فكان في زمرة الفارين المتقاعسين. وكان الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان يحترمونه كثيراً، اختاره عمر بن الخطاب في الشورى السداسيّة، فامتدت عنقه كثيراً للتطلع إلى الخلافة مع الزبير بن العوام.

(٢) عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة، وأمها أم رومان بنت عمير ابن عامر، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث سنين، ودخل بها بالمدينة، وتوفي عنها وهي ابنة ثماني عشرة سنة.
عرف عنها موقفها العدائي ضد الإمام علي عليه السلام بالخصوص، ولما بلغها استشهاده تمثلت ببيت الصحابي راشد بن عبدالله السُّلمي فرحاً:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

توفيت السيدة عائشة في سنة ٥٧ وقيل ٥٨ للهجرة. ودفنت من ليلتها بالبقيع وصلى عليها أبو هريرة.

أسباب خروج طلحة والزبير والسيدة عائشة:

تكاد تكون أسباب خروج طلحة والزبير واحدة، وتختلف السيدة عائشة شيئاً بسيطاً عنهما، وإن اشترك الثلاثة في الحملة ضد الإمام، ويمكننا أن نجمل أسباب خروج طلحة والزبير بالآتي:

- **مساواتهما بالعطاء:**

حين قسم الإمام علي عليه السلام أموال بيت المال بالسوية في أول أيام خلافته وحكمه امتنع يومئذ بعض رجالات قريش كطلحة والزبير وعبدالله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم وغيرهم عن استلام أموالهم احتجاجاً على مبدأ المساواة التي انتهجها الإمام.

كانت الحجة التي يستند إليها هؤلاء أن الخليفة عمر وعثمان لم يكونا يعطونهم بالسوية مع باقي المسلمين، بل كانوا يفضلونهم عمن سواهم ولابد أن يفضلهم هو كذلك، فأبى الإمام ذلك[1].

- **منعهما عن أخذ المال من بيت مال المسلمين:**

بعد رد الإمام علي عليه السلام لطلحة والزبير في طلب تميزهم عمن سواهم من المسلمين بعطاء كبير وكما هي سنة الخليفة عمر وعثمان، ادعيا الشدة،

---

(١) جاء طلحة والزبير إلى الإمام وكان في أرض يعمل بها، فقالا له: لنا قرابة من نبي الله، وسابقة جهاد، وإنك أعطيتنا بالسوية ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلوننا على غيرنا. فقال الإمام: فهذا قسم أبي بكر، وإلا تدعوا أبا بكر وغيره، وهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حق فخذوه. فو الله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا منزلة سواء. انظر كتاب الرواندي: الخرائج والجرائح، ج ١ ص ١٨٧ بتصرف.

وجاءا الإمام يطلبانه أن يعطيهم أموالاً من بيت مال المسلمين، فقالا: يا أمير المؤمنين، قد عرفت حال هذه الأزمنة وما نحن فيه من الشدة، وقد جئناك لتدفع إلينا شيئاً تصلح به أحوالنا، ونقضي به حقوقاً علينا.

فأبى الإمام إلا أن يعطيهما من ماله الخاص فرفضا، فقال لهما: سبحان الله وأي يد لي في بيت مال المسلمين وأنا خازنهم وأمين لهم، فإن شئتما رقيتما المنبر وسألتما ذلك من الناس ما شئتما. فانصرفا عنه وقد يئسا من بيت المال[1].

- **طمعهما في منصب ولاية إحدى الأقاليم الإسلامية:**

جاء الزبير وطلحة إلى علي عليه السلام بعد البيعة بأيّام، فقالا له: يا أمير المؤمنين، قد رأيت ما كنّا فيه من الجفوة في ولاية عثمان كلّها، وعلمت رأي عثمان في بني أُميّة، وقد ولاّك الله الخلافة من بعده، فولّنا بعض أعمالك!

فقال لهما: أرضيا بقسم الله لكما، حتّى أرى رأيي، واعلما أنّي لا أُشرك في أمانتي إلاّ من أرضى بدينه وأمانته من أصحابي، ومن قد عرفت دخيلته. فانصرفا عنه وقد دخلهما اليأس منه، فجعلا يفكّران في كيفية الخروج عليه[2].

(١) الجمل: الشيخ المفيد: ص ٨٨.

(٢) شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ١ ص ٢٣١، و ج ٨ ص ١٣٨.

أما أسباب خروج السيدة عائشة على الإمام علي عليه السلام:

- **بغضها القديم للإمام علي عليه السلام:**

لخص الإمام علي عليه السلام هذا السبب في إجابته لأحد أصحابه عندما سأله عن سبب بغض السيدة عائشة له، حتى بلغ حد الخلاف والشقاق، فقال: سأذكر أشياء حقدتها عليَّ ليس في واحد منها ذنب إليها ولكنّها تجرّمت بها عليَّ، أحدها تفضيل رسول الله لي على أبيها، وتقديمه إيّاي في مواطن الخير عليه، فكانت تضطغن ذلك ويصعب عليها وتعرفه منه فتتبع رأيه فيه.

وثانيها لمّا آخى بين أصحابه آخى بين أبيها وبين عمر بن الخطاب، واختصّني باخوّته فغلظ ذلك عليها، وثالثها أوصى صلوات الله عليه بسدّ أبواب كانت في المسجد لجميع أصحابه إلاّ بابي، فلمّا سدّ باب أبيها وصاحبه وترك بابي مفتوحاً في المسجد تكلّم في ذلك بعض أهله، فقال صلوات الله عليه: ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي بل الله عزّ وجلّ سدّ أبوابكم وفتح بابه. فغضب لذلك أبو بكر وعظم عليه وتكلّم في أهله بشيء سمعته منه ابنته فاضطغنته عليَّ.

وكان رسول الله أعطى أباها الراية يوم خيبر وأمره أن لا يرجع حتّى يفتح أو يقتل، فلم يلبث لذلك وانهزم فأعطاها، في الغد عمر بن الخطّاب وأمره بمثل ما أمر صاحبه فانهزم ولم يلبث، فساء رسول الله ذلك وقال لهم ظاهراً معلناً: لأعطينّ الراية غداً رجلا يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح الله على يده فأعطاني الراية فصبرت حتّى فتح الله على يدي فغمّ ذلك أباها وأحزنه فاضغنته عليَّ ومالي إليه ذنب في ذلك فحقدت لحقد أبيها.

وبعث رسول الله ﷺ أباها ليؤدّي سورة براءة وأمره أن ينبذ العهد للمشركين فمضى حتّى انحرف، فأوحى الله إلى نبيّه أن يردّه ويأخذ الآيات فيسلّمها إليّ، فعرف أباها بإذن الله عزّ وجلّ وكان فيما أوحى الله عزّوجلّ إليه لا يؤدّي عنك إلاّ رجل منك وكنت من رسول الله وكان منّي فاضغطن لذلك عليَّ أيضاً واتبعته عائشة في رأيه.

وكانت عائشة تمقت خديجة بنت خويلد، وتشنأها شنآن الضرائر، وكانت تعرف مكانها من رسول الله ﷺ فيثقل ذلك عليها، وتعدّى مقتها إلى ابنتها فاطمة، فتمقتني وتمقت فاطمة وخديجة، وهذا معروف في الضرائر[1].

○ مساواتها بالعطاء مع غيرها من زوجات النبي ﷺ:

لقد ميز الخليفة عمر بن الخطاب ثلاث نسوة من زوجات النبي ﷺ عن بقيتهن باثنى عشر ألف درهم، وهن: عائشة بنت أبي بكر وحفصة ابنته وأم حبيبة بنت أبي سفيان، بينما أعطى باقي الزوجات عشرة آلاف درهم غير جويرية وصفية إذ فرض لهما ستة آلاف درهم فقط.

هذه الميزة هي السبب وراء غضبها على الخليفة عثمان بشكل دقيق، حيث كانت على وئام معه حتى منعها من أمرين:

الأمر الأول منعها من ميراث النبي ﷺ[2]، والآخر إصراره على

---

(١) الجمل: للشيخ المفيد، ص ٢١٨ - ٢١٩، وص ٤٠٩ وص ٤٢٥.

(٢) ينقل المرندي في مجمع النورين: ص ١٢٠ - ١٢١: أن السيدة عائشة (جاءت إلى الخليفة عثمان فقالت: أعطني ما كان يعطيني أبي وعمر. قال لا أجد له موضعاً في الكتاب ←

تخفيض عطائها الذي عينه لها عمر بن الخطاب[1].

هذا السبب اشترك فيه بعض السيدة عائشة للخليفة عثمان وللإمام علي عليه السلام في ذات الوقت.

أحداث المعركة:

سُمِّيت (معركة الجمل) بذلك لأنَّ (قائدة الجيش) السيدة عائشة فضَّلت ركوب الجمل على البغال والحمير، وكانت الوقعة خارج البصرة، وكان عسكر الإمام عشرين ألفاً، وعسكر السيدة عائشة ثلاثين ألفاً.

وكان أوَّل قتيل يومئذٍ مسلم الجُهني، إذ أمره الإمام علي عليه السلام فحمل مصحفاً فطاف به على القوم يدعوهم إلى كتاب الله فقُتل، فرماه عسكر الجمل بسهامٍ فقتلوه، ثمَّ أخذ أصحاب الجمل يرمون عسكر الإمام علي عليه السلام بالنبال حتى قُتل منهم جماعة، فقال أصحاب الإمام: عقرتنا سهامهم، وهذه القتلى بين يديك.

وتقابل الفريقان للقتال، فخرج الزبير وطلحة بين الصفَّين وخرج

← ولا في السنة، ولكن كان أبوك وعمر يعطيانك عن طيبة أنفسهما وأنا لا أفعل. قالت فأعطني ميراثي من رسول الله. قال: أولم تجئ فاطمة تطلب ميراثها من رسول الله فشهدت أنت ومالك بن أوس البصري أن النبي لا يورث وأبطلت حق فاطمة، وجئت تطلبينه لا أفعل).

فكانت السيدة عائشة إذا خرج الخليفة عثمان إلى الصلاة أخرجت قميص رسول الله وتنادي: هذا قميص رسول الله لم يبل وقد غير عثمان سنته، اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلا.

(١) يذكر اليعقوبي في تاريخه: ج ٢ ص ١٣٢، أنه: (كان بين عثمان وعائشة منافرة، وذلك أنّه نقصّها ممّا كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيّرها أسوة غيرها من نساء رسول الله).

إليهما الإمام علي عليه السلام، حتى اختلفت أعناق دوابِّهم، فذكرهما بالآخرة وعظيم ما يقترفونه بحقه وبحق دماء المسلمين، فانصرفا عنه وقد عزم الزبير على الرجوع، فقال له ابنه عبدالله: جمعت بين هذين الغارين، حتى إذا حدَّد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب ؟! لكنَّك خشيت رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنَّها تحملها فتيةٌ أنجاد، وأنَّ تحتها الموت الأحمر، فجبنت ! فأغضبه ذلك، وقال: إنِّي حلفتُ ألا أُقاتله. قال: كفِّر عن يمينك، وقاتله.

واحتدمت المعركة بين الفريقين، وتقاتلوا قتالاً لم يشهد تاريخ البصرة أشدَّ منه، واستمرَّ الحال على هذا، لم يرَ سوى الغبرة وتناثر الرؤوس والأيدي، فتتهاوى أجساد المسلمين على الأرض.

ولمَّا رأى الإمام عليه السلام هذا الموقف الرهيب من كلا الطرفين، وعلم أنَّ المعركة لا تنتهي أبداً مادام الجمل واقفاً على قوائمه صاح بجيشه: (ارشقوا الجمل بالنبل، واعقروه وإلا فنيت العرب، ولا يزال السيف قائماً حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض).

فقطعوا قوائمه، ثُمَّ ضربوا عجز الجمل بالسيف، فهوى إلى الأرض وعجَّ عجيجاً لم يُسمع بأشدِّ منه، فتفرَّق من كان حوله كالجراد المبثوث، وبقيت قائدة المعركة لوحدها في ميدان الحرب ! وانتهت المعركة بهزيمة المتمرِّدين من أصحاب الجمل.

أمَّا الإمام عليه السلام فقد هاله موقف المسلمين منه، حتى ساقهم هذا العصيان والتمرُّد على الحقِّ إلى مثل هذا المصير، فوقف بين قتلاه وقتلى المتمرِّدين، تحيط به هالة القلق والتمزُّق فقال: هذه قريشٌ، جَدَعْتُ أنفي

وشفيتُ نفسي، لقد تقدَّمت إليكم أُحذِّركم عضَّ السيوف، وكنتم أحداثاً لا علم لكم بما ترون، ولكنَّه الحَين، وسوء المصرع، فأعوذ بالله من سوء المصرع ؟

ثمَّ أمر الإمام علي عليه السلام نفراً أن يحملوا هودج عائشة من بين القتلى، وأمر أخاها محمَّد بن أبي بكر أن يضرب عليها قُبَّةً، وقال: انظر هل وصل إليها شيء من جراحة ؟ فأدخل رأسه في هودجها، فقالت: من أنت ؟ قال: أبغض أهلك إليك. قالت: ابن الخثعمية ؟ [1]. قال: نعم. قالت: الحمد لله الذي عافاك.

فلمَّا كان الليل أدخلها أخوها محمَّد بن أبي بكر البصرة، في دار صفية بنت الحارث، ثمَّ دخل الإمام عليه السلام البصرة فبايعه أهلها على راياتهم حتى الجرحى والمستأمنة، ثمَّ جهَّز الإمام علي عليه السلام السيدة عائشة بكلِّ ما ينبغي لها من مركبٍ وزادٍ ومتاعٍ وغير ذلك، وبعث معها كلَّ من نجا، ممَّن خرج معها، إلا من أحبَّ المقام، واختار لها أربعين امرأةً من نساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمَّد بن أبي بكر.

---

(١) تقصد بالخثعمية أسماء بنت عميس الخثعمي، امرأة مؤمنة صالحة، وهي زوجة جعفر الطيّار، ولّما استشهد في معركة مؤتة تزوّجها أبو بكر، وأولدت منه محمّداً، ولّما مات عنها أبو بكر، تزوّجها الإمام علي عليه السلام، وكان محمّد بن أبي بكر صغير السنّ، فتربّى في كنف الإمام، فكان ربيبه ومن أخلص أصحابه، وكان الإمام علي عليه السلام يقول: محمّد ابني ولكنّه من صلب أبي بكر.
انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ٦ ص ٥٤.

○ **معركة القاسطين (صفين):**

لمّا انتهت فتنة الجمل استعدَّ الإمام علي عليه السلام للقاء معاوية بن أبي سفيان، فوجد حماساً وتجاوباً من أهل الكوفة، فقد كان قسم كبير منهم قد اشتركوا معه في معركة الجمل، واستبشروا بالنصر.

ثمَّ إنَّ الإمام علي عليه السلام وقبل حرب صفِّين قد أرسل إلى معاوية السفراء والكتب يدعوه إلى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون من قبله، لكنَّه لم يستجب لطلبه، بل أظهر الشدَّة والصلافة في ردِّه على رسائل الإمام، واختار القتال على الصلح والمسالمة.

في هذه الأثناء تجهَّز معاوية بجيشٍ ضخمٍ واتَّجه به صوب العراق، ولمَّا بلغ الإمام علي عليه السلام خبره جهَّز جيشه واتَّجه نحوه، ليقطع عليهم الدخول إلى أرض العراق، لما في ذلك من قتل ونهب وفساد كبير؛ فكان من ذلك حرب صفِّين، وبالشعار السابق نفسه: (دم عُثمان) !.

وعسكر الإمام بالنُخيلة، وعقد لواءه لغلامه قنبر، بينما نزل معاوية بمن معه في وادي صفِّين، وأخذ شريعة الفرات، وجعلها في حيِّزه، وبعث عليها أبا الأعور السُّلمي يحميها ويمنعها.

وبعث أمير المؤمنين صعصعة بن صوحان إلى معاوية، يسأله أن يخلِّي بين الناس والماء فرفض، فقال الإمام علي عليه السلام : قاتلوهم على الماء. فأرسل كتائب من عسكره، فتقاتلوا واشتدَّ القتال، واستبسل أصحاب الإمام أشدَّ استبسالٍ، حتى خلَّوا بينهم وبين الماء، وصار في أيدي أصحاب الإمام فقالوا: والله لا نسقيه أهل الشام !.

فأرسل الإمام علي عليه السلام إلى أصحابه: خذوا من الماء حاجتكم وخلُّوا عنهم، فإنَّ الله نصركم بغيِّهم وظلمهم.

ثمّ دعا الإمام علي عليه السلام جماعة من قادة جنده، فقال لهم: ائتوا هذا الرجل وادعوه إلى الله والى الطاعة والجماعة. ففعلوا ما أمرهم به، لكنَّ معاوية قال لهم بعد أن سمع كلامهم: انصرفوا من عندي، فليس بيني وبينكم الا السيف، وغضب القوم، وخرجوا، فأتوا عليّاً عليه السلام فأخبروه بذلك.

واحتدم القتال بين الطرفين، فاقتتلوا يومهم كلَّه قتالاً شديداً لم يشهد له تاريخ الحروب مثيلاً، ثُمَّ تقدَّم الإمام علي عليه السلام بمن معه يتقدَّمهم عمَّار بن ياسر، ولمَّا برز لعمرو بن العاص قال عمَّار: لقد قاتلت صاحب هذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرّات، وهذه الرابعة ما هي بأبرَّ وأنقى.

وقال حبَّة بن جُوَين العُرَني: قلتُ لحذيفة بن اليمان: حدِّثنا فإنَّا نخاف الفتن. فقال: عليكم بالفئة التي فيها ابن سُميَّة، فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: (تقتله الفئة الباغية الناكبة، الناكثة عن الطريق، وإنَّ آخر رزقه ضَياح من لبن). قال حبَّة: فشهدته يوم قُتل وهو يقول: ائتوني بآخر رزقٍ لي في الدنيا، فأُتي بضياح من لبن في قدح أروح له حلقة حمراء، فقال:

اليوم ألقى الأحبَّة محمَّداً وحزبه

والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر؛ لعلمت أنَّنا على الحقِّ وأنَّهم على الباطل، ثم قُتل رضوان الله عليه.

ولمَّا قُتل عمَّار، قال الإمام علي عليه السلام لربيعة وهمدان: (أنتم درعي ورمحي) فانتدب له نحو اثني عشر وتقدَّمهم الإمام علي عليه السلام على بغلة

فحملوا معه حملة رجلٍ واحدٍ، فلم يبقَ لأهل الشام صفٌّ إلا انتقض، وقتلوا كلَّ من انتهوا إليه، حتى رأوا الظفر.

واستمرَّ القتال ليلةً كاملة حتى الصباح، فتطاعنوا حتى تقصَّفت الرماح، وتراموا حتى نفد النبل، وكان الأشتر في الميمنة وابن عبَّاس في الميسرة والإمام علي عليه السلام في القلب، والناس يقتتلون من كلِّ جانبٍ، حتى أصبحوا والمعركة خلف أظهرهم.

رفع المصاحف (كلمة حقٍّ يُراد بها باطل):

ولمَّا رأى عمرو بن العاص أنَّ أمر أهل العراق قد اشتدَّ وخاف الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمرٍ أعرضه عليك، لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقةً ؟ قال: نعم. قال: نرفع المصاحف، ثُمَّ نقول: هذا حكم بيننا وبينكم.

فرفعوا المصاحف على الرماح وقالوا: هذا كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهله ؟ مَنْ لثغور العراق بعد أهله ؟

فلمَّا رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله.

فقال لهم الإمام علي عليه السلام : عباد الله امضوا على حقِّكم وصدقكم وقتال عدوِّكم، فإنَّ معاوية وعمرو وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحَّاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرَف بهم منكم، قد صحبتهم أطفالاً ثُمَّ رجالاً، فكانوا شرَّ أطفال وشرَّ رجال، ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعةً ووهناً ومكيدة.

فقالوا له: لا يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ! فقال لهم الإمام علي عليه السلام : فإنِّي إنَّما أُقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنَّهم قد عصوا الله فيما أمره ونسوا عهده ونبذوا كتابه.

فقال له جماعة من المسلمين ـ الخوارج ـ: يا عليُّ، أجب إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ إذا دُعيت إليه، وإلا دفعناك برمَّتك إلى القوم، أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفَّان ! قال: فاحفظوا عنِّي نهيي إيَّاكم، واحفظوا مقالتكم لي، فإن تطيعوا فقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم.

وفي تلك اللحظات لم تكن بينهم وبين معاوية إلا بضعة أمتار، فلولا وقوع هؤلاء في الفخ الذي نصبه معاوية لاستطاع الإمام أن يسيطر على الموقف ويستأصل رأس الفتن، ولكنَّ مسألة التحكيم غيَّرت مجرى الأُمور إلى أسوأ حال، فحالت دون تحقيق الهدف المنشود، وقُدِّر لهذه المؤامرة أن تنجح وأن تجرَّ وراءها المصائب والويلات !

ثمَّ قالوا للإمام عليه السلام : ابعث إلى الأشتر فليأتكَ، فرجع الأشتر مغضباً بعدما أوشك على النصر، فأقبل إليهم الأشتر وقال: يا أهل العراق ! يا أهل الذلِّ والوهن ! أحين علوتم القومَ وظنُّوا أنَّكم لهم قاهرون، رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها، وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها وسُنَّة مَنْ أُنزلت عليه ؟ فأمهلوني فواقاً، فإنِّي قد أحسستُ الفتح. لكنَّهم أبوا إلا التحكيم !

وجعل أهل الشام عمرو بن العاص على التحكيم، وأراد الإمام علي عليه السلام أن يجعل عبدالله بن عبَّاس، لكنَّهم أبوا إلا أبا موسى الأشعري، ولمَّا رأى أنه لا تنفع معهم حجَّة حكَّمه على مضض !

وتمّت كتابة الكتاب بجعل كتاب الله الحاكم في كلِّ الأُمور، وما لم يوجد في كتاب الله فالسُنَّة العادلة الجامعة غير المفرِّقة، وأُجِّل القضاء إلى شهر رمضان.

(لا حكم إلا لله):

ولمَّا انتهت مسألة التحكيم بخدع ابن العاص لأبي موسى الأشعري، أقر بعض أصحاب الإمام علي عليه السلام بخطئهم وتصايحوا: كيف تُحكِّمون الرجال في دين الله، لا حكم الا لله !! ودعوا الإمام عليه السلام إلى التوبة لأنه كفر بزعمهم.

إلا أن الإمام علي عليه السلام رفض هذا الكلام، فكانوا يعترضون الإمام علي عليه السلام في خطبته بشعارهم (لا حكم الا لله) لذلك سُمُّوا بالمحكِّمة.

وكانوا ما يقارب اثني عشر ألفاً فخرجوا من الكوفة ونزلوا في ناحية يُقال لها: (حروراء) لأجلها سُمُّوا بالحرورية، فحاججهم الإمام علي عليه السلام بقوله الأوَّل قبل التحكيم، ثُمَّ قال لهم: قد اشترطتُ على الحكمين أن يُحييا ما أحيا القرآن، ويُميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف، وإن أبيا فنحن عن حكمهما براء.

قالوا: أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء ؟ قال: إنَّا لسنا حكَّمنا الرجال، إنَّما حكَّمنا القرآن، وهذا القرآن إنَّما هو خطٌّ مسطور بين دفَّتين لا ينطق، إنَّما يتكلَّم به الرجال، ثمَّ رجعوا مع الإمام علي عليه السلام .

فلمَّا التقى الحكمان: أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص، وخُدِع أبو موسى؛ إذ مكر به عمرو، قال له: أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وأسنُّ منِّي فتكلَّم، وأراد عمرو بذلك كلِّه أن يقدِّمه في خلع الإمام علي عليه السلام. قال له: نخلع عليّاً ومعاوية معاً، ونجعل الأمر شورى، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبُّوا. فتقدَّم أبو موسى فأعلن على الملأ الحاضرين أنَّه قد خلع عليّاً من الخلافة ثُمَّ تنحَّى.

وأقبل عمرو فقام، وقال: إنَّ هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأُثبت صاحبي معاوية ! فدُهش أبو موسى وشتم عمراً وشتمه عمرو، وانفضَّ التحكيم عن هذه النتيجة ! والتمس المسلمون أبا موسى فهرب إلى مكَّة، ثُمَّ انصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلَّموا عليه بالخلافة.

معركة المارقين (النهروان):

مع هذه النتيجة التي آلت إليها معركة صفين عاد الإمام علي عليه السلام يعمل على إعادة نظم جيشه، استعداداً لمرحلة جديدة من الحروب مع أهل الغدر، ولكن فتناً جديدة نجمت بين أصحابه ستمنع من انطلاقته صوب أهدافه، إذ بلغ الإمام علي عليه السلام قتل (المحكِّمة) لعبدالله بن خباب بن الأرت ونساء معه، واعتراضهم الناس، وقتلهم مبعوث الإمام إليهم، فقال أصحاب الإمام: يا أمير المؤمنين علامَ ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سر بنا إلى القوم، فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدوِّنا من أهل الشام.

فرجع الإمام علي عليه السلام بجنده الذين ذعروا على أهليهم من خطر الخوارج، والتقى الجيشان في منطقة يقال لها النهروان، فلم يبدأهم الإمام

بحرب، حتى دعاهم إلى الحجَّة والبرهان، فبعث إليهم ابن عبَّاس أمامه، فناظرهم بالحجَّة والمنطق السليم، لكنَّهم أصرُّوا على العمى والطغيان !

ثُمَّ تقدَّم الإمام علي عليه السلام بنفسه، وذكَّرهم نهيه عن قبول التحكيم وإصرارهم عليه، حتى لم يبقَ لديهم حجَّة، وحتى رجع أكثرهم وتاب، وممَّن رجع يومذاك إلى رشده: عبدالله بن الكوَّا أمير الصلاة فيهم. وأبى بعضهم إلا القتال !!

وتعبأ الفريقان، ثمَّ جاءت الأنباء أنَّ الخوارج قد عبروا الجسر، فقال عليه السلام : والله ما عبروا، ولا يقطعونه، وإنَّ مصارعهم لدون الجسر. ثُمَّ ترادفت الأخبار بعبورهم وهو عليه السلام يحلف أنَّهم لن يعبروه وأنَّه (والله لا يفلتُ منهم عشرة، ولا يهلك منكم عشرة !) فكان كلُّ ذلك كما أخبر به الإمام عليه السلام ، فأدركوهم دون النهر، فكبَّروا، فقال الإمام عليه السلام : (والله ما كذبتُ ولا كُذبت).

وكان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد قال لأصحابه: كُفُّوا عنهم حتى يبدأوكم. فتنادوا الخوارج: الرواح إلى الجنَّة ! وحملوا على الناس.

واستعرت الحرب، واستبسل أصحاب الإمام عليه السلام استبسالاً ليس له نظير، فلم ينجُ من الخوارج إلا ثمانية فرُّوا هنا وهناك، ولم يُقتل من أصحاب الإمام عليه السلام غير تسعة، وقيل: سبعة.

وقال الإمام علي عليه السلام حين مرَّ بهم وهم صرعى: بؤساً لكم! لقد ضرَّكم من غرَّكم ! قالوا: يا أمير المؤمنين مَنْ غرَّهم ؟ قال: الشيطان وأنفسٌ أمَّارة بالسوء، غرَّتهم بالأماني، وزيَّنت لهم المعاصي، ونبَّأتهم أنَّهم ظاهرون.

نشوء تيارات فكرية متطرفة :

من النتائج التي خرجت على صعيد الواقع إثر تطبيق الإمام علي عليه السلام سياسته والتي تحدثنا عنها بالفصل الأول، نشوء تيارات فكرية متطرفة جديدة لم تكن ظاهرة بالشكل الواضح، أو لنقل لم تكن واضحة المعالم من قبل تسلم الإمام الحكم.

وهذه التيارات على اختلافها كانت ضد توجهات ومبادئ الإمام علي عليه السلام، لذا حرص الإمام على محاربتها فكرياً وعسكرياً، علماً أن هذه التيارات امتدت منذ نشوئها في عصر الإمام وحتى عصرنا هذا، بل أخذت بالاتساع، فأصبح لبعض تلك التيارات فرق مختلفة ومذاهب شتى، ولكن بالعموم نحن يعنينا من هذا الحديث طابعه العام، وذكر عوامل نشوء هذه الفرق وعلاقة نشوئها بسياسة الإمام علي عليه السلام الإصلاحية.

يقول ابن حجر العسقلاني[1]: (ثم كان من أمر علي ما كان، فنجمت طائفة أخرى حاربوه..) إلى يقول: (.. فصار الناس في حق علي ثلاثة: أهل السنة، والمبتدعة من الخوارج، والمحاربين له من بني أمية وأتباعهم).

- **نشوء التيار التكفيري (الخوارج):**

ظهرت فرقة الخوارج التكفيرية بعد حرب صفين مباشرة، بعد خدعة رفع المصاحف من قبل جيش معاوية، وقد أحدثت هذه الخدعة أثرها في جيش الإمام علي عليه السلام، حيث أدت إلى إجابة أكثر ذلك الجيش إلى

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج ٧ ص ٧١.

التحكيم، وبقي الإمام عليه السلام مع أهل بيته في عدة يسيرة يواجهون تهديدات أولئك الانفصاليين بنفس المستوى أو أشد من التهديد الذي كان يواجههم به جيش أهل الشام.

لقد كانت تبريرات الفرقة التكفيرية (الخوارج) لخروجهم على الإمام علي عليه السلام بأنه قد حكّم الناس في دين الله، وأن ذلك قد أوجب كفره وخروجه من الدين، بل زادوا على ذلك: أنهم هم أيضاً قد كفروا معه حين أجبروه على قبوله، فلابد له ولهم من التوبة، وهم قد تابوا وبقي عليه هو أن يتوب من هذا الفعل.

وقد أوضح لهم الإمام علي عليه السلام وكذا حبر الأمة ابن عباس أنهم مخطئون في تصورهم هذا، وأن الإمام علي عليه السلام لم يُحكم الرجال في دين الله وإنما حكم القرآن، وعلى فرض أنه قد حكم الرجال، فإن ذلك ليس بالأمر الموجب للكفر، إذ قد حكّم الله سبحانه الرجال في أكثر من مورد أشار القرآن إليه.

وبعد أن عَلِمَ الإمام عليه السلام بما جرى من أمر التحكيم بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص أمر أركان جيشه ومن معهم بالمسير إلى معاوية لمقاتلته، فكتب إلى ابن الكواء والراسبي وزيد بن الحصين ومن معهم من الناس يطلب منهم الالتحاق به لحرب معاوية، وكانوا من رؤوس الخوارج وزعمائهم فرفضوا ذلك، وقالوا له: إنما غضبت لنفسك، وطلبوا منه أن يشهد على نفسه بالكفر، ثم ينظرون فيما بينهم وبينه.

فأيس الإمام علي عليه السلام منهم وتركهم وجد المسير بجيشه نحو الشام، فكان ما كان من قتلهم لعبدالله بن خباب بن الأرت ـ صاحب رسول الله ـ،

وبقر بطن امرأته الحامل، وقتلهم ثلاث نسوة من طيء، فانعطف إليهم الإمام عليه السلام بمن معه وقاتلهم.

الخوارج والإمام:

كانت سياسية الإمام علي عليه السلام مع جميع من خالفه من الخوارج أن لا يحرمهم حقوقهم كمواطنين بالدولة، ولا يمنع عنهم أعطياتهم من بيت مال المسلمين، ولهم أن يحضروا المساجد، ولهم ما للمسلمين ولهم ما عليهم إن أمن الناس من يدهم وألسنتهم.

وهذا الأسلوب يعتبر من أروع الأساليب السياسية في التعامل مع المخالفين للقائد والحاكم السياسي للدولة، فلم يسبق لا في عهد الخلفاء الثلاثة الذين قبله ولا غيرهم أن كانوا بمثل هذا الخلق السياسي الرفيع في التعامل مع من يجاهر علانية بمعارضة الحاكم وسبه.

يقول الإمام علي عليه السلام مخاطباً أحد أصحابه لما سبه أحد الخوارج علانيةً وبمراء ومسمع من أصحاب الإمام: (لهم علينا ثلاث: أن لا نمنعهم المساجد أن يذكروا الله فيها، وأن لا نمنعهم الفيء مادامت أيديهم في أيدينا. وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا).

تكفيرهم الإمام وأذيتهم له:

حين يواجه الإنسان التحدي والأذى من الآخرين من دون أي مبرر مقبول ويكون في ذات الوقت غير قادر على رد التحدي والأذى والثأر لنفسه فليس له أن يدعي أن ما يفعله صفح وعفو، أما حين يكون قادراً على ردع المعتدي، فإن السكوت وكظم الغيظ يكون من الخصال الحميدة،

إلا إن يكون هذا الاعتداء ليس على شخصه فقط، بل يتعدى ذلك إلى الناس والمسلمين عامة؛ فحينئذ يكون سكوته تشجيعاً على العدوان وعلى الضعفاء.

وهذا هو شأن الإمام علي عليه السلام مع هذا التيار، فقد روي أنه ولكثرة ما سمع منهم: كافر، وكفرت، وأشباهها من الكلمات، فقد اعتاد الإمام علي عليه السلام على سماع مثل هذه الكلمات منهم، حتى كان الصفح منه عادة، حتى إذا ما تعدوا على حدود الله بالقتل والسلب كان للإمام موقفٌ آخر معهم.

صفاتهم وسماتهم:

سطر الكثير من المؤرخين حول صفاتهم وسماتهم، وخصوصاً في الدراسات التي تُعنى بدراسة عقائدهم وأدبهم، نختار هنا أبرزها [1]:

١. مواقف هذا التيار كانت عفوية ومرتجلة، ولم يكن يسبقها تخطيط دقيق، لأنها كانت في الأكثر استجابة لحالات من الحقد والغضب الذي أعمى بصائرهم.
٢. كان الجهل معشعشاً في عقول معتنقي هذا التيار، ولذا نجد أن الشعارات البراقة تستهويهم، وتدفع بهم إلى مزيد من التصلب والجرأة.
٣. يتميز أصحاب هذا التيار بالشجاعة والإقدام، لكنها أشبه بنزعات النخوة لدى قبائل الجاهلية.
٤. عرفَ أصحابُ هذا التيار بتمسكهم بظواهر الألفاظ، وحرفية

(١) انظر كتاب: الإمام علي والخوارج: للسيد جعفر مرتضى العاملي، ج ٢ ص ١٣٨ـ ١٣٩.

النصوص، وعدم تعمقهم في مدلولاتها، وجمودهم على ظواهرها.

٥. عرف عن أصحاب هذا التيار بالتظاهر بالعبادة والنسك والزهد، وتلاوة القرآن.

٦. لدى معتنقي هذا التيار شدة وقسوة على المسلمين الذين لا يرون آراءهم، بل يتسرعون في إطلاق أحكام الكفر والخروج عن الدين، ويجيزون سفك دمه.

٧. يعتبر أصحاب هذا التيار كل ما يمت بصلة من بعيد أو قريب للإمام علي عليه السلام جريمة وكفراً وخروجاً عن الدين، فلذا كانت حربهم لآل البيت حرباً شعواء لا يتركون وراءهم إلا الدمار.

بَعضٌ أَقوال الإمام فيهم:

يقول الإمام علي عليه السلام: (إنّي فقأت عين الفتنة، ولم يكن ليجترئ عليها أحد غيري) [١].

ولمّا قال بعض أصحاب الإمام علي عليه السلام بعد انتصارهم بالنهروان: هلك القوم أجمعهم. قال الإمام عليه السلام: (كلاّ والله إنّهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلّما نجم منهم قرن قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلاّبين) [٢].

وخاطبهم الإمام عليه السلام يوماً بقوله: (.. ثمّ أنتم شرار الناس ومن رمى به الشيطان مراميه، وضرب به تيهه، وسيهلك فيَّ صنفان، محبّ مفرط

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٣.

(٢) المصدر السابق: الخطبة رقم ٦٠.

يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ، ومبغض مفرط يذهب بـه الـبغض إلى غـير الحقّ، وخير الناس فيَّ حالاً النمط الأوسط فالزموه)[1].

- **نشوء التيار الناصبي (بني أمية):**

بدأت نواة هذا التيار المعادي والمناصب العداء للإمام عـلي عليه السلام منـذ فجر اندلاع الإسلام الأول. ولكنه بالرغم من ذلك كان ضامراً في النفوس ولم يكن ظاهراً على السطح جلياً كما كان في أيام تسلمه للخلافة والحكم.

ويعود ظهور هذا التيـار عـلى أرض الواقـع بشـكل واضـح فاضـح يتفاخر المتمسكون به وأمـام مـراء ومسـمع مـن النـاس إلى تمكـن شـوكة الأمويين من جسد الأمة الإسلامية.

عندما أرسل الإمـام عـلي عليه السلام إلى ولاة الخليفـة عـثمان بعـد تسـلمه منصب الخلافة والحكم، فعزل جميع من كـان ظالمـاً سـارقاً فاسـداً، وعـلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان؛ لم يستجب معاويـة لهـذا الطلـب لاسـيما أن الأمة بدأت تنشق على الإمام علي عليه السلام بعد خروج طلحة والزبير والسـيدة عائشة وطلبهم عزله وتسليم قتلة الخليفة عثمان.

وجد معاوية أن الطريق الأفضل لمحاربة هذا الرجـل هـو بـث روح العداء والكراهية في قلب كل من يدخل في طاعته، وساعده على ذلك عدم تعرف الأقليم الشامي على الإمام علي عليه السلام عن قـرب، بعـد إقصـائه عـن الأدوار السياسية منذ رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحتى آخر يوم من قتـل الخليفـة عثمان بن عفان.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٢٧.

أما أبرز معالم هذا التيار وسماته فنستطيع أن نجملها في الآتي:

عداؤه الشديد لخط الإمام وأهل بيته:

استغل معاوية بن أبي سفيان كل من كان كارهاً له فقربه، فأرسل الرسائل تلو الأخرى طالباً قدومهم عليه بالشام ونيل الحظوة لديه. وبالفعل نجح معاوية في الاستفادة من رابط كراهية الإمام علي عليه السلام والرغبة في إزاحته عن منصب الخلافة عنه، وغالبية هؤلاء كانوا من المستفيدين زمن خلافة الخلفاء الثلاثة.

كما أظهر معاوية بن أبي سفيان المكر في استقطاب الفئات الكارهة للإمام علي عليه السلام وضمهم إلى صفه، فخاطب كل فئة باللغة التي يتناسب معها والمنطق الذي يطابق مصالحها وأهواءها، وكان خطابه للصحابة الكبار من أمثال سعد بن أبي وقاص يختلف كثيراً عن مخاطبته لزعماء القبائل العربية، وكتبه لأم المؤمنين عائشة بعيداً تماماً عن كلامه مع بني قومه من بني أمية والقبائل القرشية الأخرى[1].

إخفاء أي فضيلة تخص الإمام ووضع المزور قبالها:

حرص معاوية بن أبي سفيان على إخفاء كل منقبةٍ وفضيلةٍ للإمام علي عليه السلام وأهل بيته، بل عمد إلى اختلاق أحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم تُنقص من قدر الإمام علي عليه السلام أو مساواته بأشخاص آخرين هم أقل شأناً من الإمام.

---

(١) انظر كتاب قريش وعلي: لحسام شحادة، ص ٤٩٢.

وكان مما كتبه معاوية إلى عمّاله نسخة واحدة لا تختلف: (أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته) فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته.

فكتب إليهم معاوية ثانية: (أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبى تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فان هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبى تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله).

فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في ذلك فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله [1].

شن الغارات الدموية على المناطق الموالية للإمام:

رب كلمة خير من ألف مقال، ورب رسالة تكلم مضمونها عن ألف كتاب، وهكذا كان من رسالة معاوية، رسالة ضمنها وصية لجزاره سفيان بن عوف الغامدي، وهي نموذج لهذا الفكر الناصبي تجاه الإمام علي عليه السلام وأهل بيته ومحبيهم.

يقول معاوية في وصيته التي أوصى بها لهذا الجزار: (.. إني باعثك في

(١) انظر شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ١١ ص ٤٤ بتصرف.

جيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فالزم إلى جانب الفرات..).

إلى أن يقول: (إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررتَ به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب..) [1].

وأرسل معاوية رجلاً متوحشاً يُدعى بسر بن أُرطاة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن بعد أن زوده بوصيته الدموية وكما هي عادته[2]:

(لا تنزل على بلد أهله على طاعة علي إلاّ بسطت عليهم لسانك، حتى يروا أن لا نجاء لهم وأنك محيط بهم، ثم اكفف عنهم وادعهم إلى البيعة لي، فمن أبى فاقتله، واقتل شيعة عليّ حيث كانوا ..).

إلى أن قال: (وارهب الناس عنك فيما بين المدينة ومكة، وجعلها شُرُداً..).

وبالفعل قَامَ اللعينُ بسر بن أرطاة بحرق وهدم كثير من البيوت ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة واليمن، وقد بلغ عدد من قتلهم بسر في تلك الحملة ثلاثون ألفاً من شيعة الإمام علي عليه السلام.

وأرسل معاوية الضحّاك بن قيس الفهري بثلاثة آلاف فارس وألزمه وصاياه السابقة، فأقَبَلَ الضحّاك يأخذ الأموال، ويقتل من لقي من الموالين

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٨٦.
(٢) المصدر السابق: ج ٢ ص ٦ـ ٧.

للإمام علي عليه السلام حتّى لاقى في طريقه ابن أخي الصحابي عبدالله بن مسعود واسمه مسعود الذهلي فقتله وقتل معه أناساً من أصحابه.

كانت هذه الغارات التي يشنها معاوية بن أبي سفيان على نواحي متفرقة من البلاد التي هي في طاعة الإمام علي عليه السلام فيقتل الأبرياء وينتهك المحرمات ويسفك الدماء، فسبب ألماً شديداً في قلب الإمام علي عليه السلام، حتى قال حين أخبر بغارة بسر ابن أرطاة على اليمن: (..فلو أن امرأً مُسلماً ماتَ من بعدِ هذا أسفاً ما كان بهِ ملوماً، بل كانَ به عندي جَديراً..) [1].

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام واستيلاء معاوية على مقاليد الخلافة بعد الصلح، وكانت الكوفة تضم غالبية الشيعة، استعمل عليهم زياد بن سميّة وضم إليه البصرة، فكان يتتبّع الشيعة وهو بهم عارف؛ فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل منهم، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم، وشردهم عن العراق، فلم يبق بالعراق موالٍ معروف بشخصه، وهذه النقطة بالذات كان لها التأثير البالغ على إخفاء هوية الموالي خوفاً من القتل والتشريد والتعذيب.

سب الإمام علي عليه السلام وإعلان البراءة منه:

أمر معاوية بن أبي سفيان بسب الإمام علي عليه السلام على المنابر، وأوصى جميع عماله الذين استعملهم بأن لا يتركوا شتم علي وذمّه، والترحم على عثمان بن عفان والاستغفار له، والعيب لأصحاب علي عليه السلام والإقصاء لهم،

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٧.

والإطراء بشيعة عثمان والإدناء لهم[1].

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام بسنوات طِوال، ومعاوية يحث أصحابه وولاته على سب الإمام والنيل منه، تذاكر قوم من بني أميه عنده، أن: يا أمير المؤمنين إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل. فقال: لا والله حتى يربو عليها الصغير، ويهرم عليها الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلا [2].

- **نشوء تيار الغلاة:**

لم تنشأ حركة الغلاة في التاريخ بهذا التيار الذي كان يرفع من مقام الإمام علي عليه السلام حتى يضعه في مرتبة الإلوهية، وإنما هنالك تيارات أخرى كانت تغالي بنبي الله عيسى عليه السلام وعزيز وغيرهم مما رواها لنا القرآن الكريم والتاريخ.

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم تنبأ بنشوء هذا التيار منذ أن كان عليٌ في كنفه، فقال له: (يا علي إن فيك من عيسى ابن مريم، أبغضته اليهود فبهتت أمه، وأحبته النصارى فرفعته فوق قدره) [3].

في العهد النبوي لم يكن هذا التيار متواجداً بشكل واضح، غير أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصرح بوجوده في أكثر من موطن، ولو تتبعنا تاريخ الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان لوجدنا أن حركة هؤلاء غير ظاهرة،

---

(١) انظر الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٤٨٨، وتاريخ الطبري: ج ٥ ص ٢٥٣.

(٢) النص والاجتهاد: شرف الدين، ص ٤٩٩.

(٣) انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ٨ ص ١١٩.

ولو وجدنا بعض الروايات فهي قليلة ونادرة.

وبعد خلافة الإمام عليه السلام وانشغاله بالحروب التي اضطره إليها أعداؤه وبعض الحاقدين عليه بدأ هذا التيار بالظهور علانية، وعلى شكل أفراد وجماعات قليلة متفرقة.

ينقل ابن أبي الحديد في شرحه[1] أن الإمام علي عليه السلام عثر قوم قد كفروا بربهم، وجحدوا بنبو ة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأدعو أن الإمام علي عليه السلام هو ربهم ورازقهم ومدبر أمورهم أجمع، فاستتابهم وتوعدهم فلم يستجيبوا، فحفر لهم حفراً أشعل النار على جوانبهم فغمرهم الدخان، طمعاً في أن يتراجعوا إن أحسوا بالحرق، فأبو فاحرقهم أجمع.

ويروي ابن أبي الحديد عن أبي العباس أحمد بن عبيد الله الثقفي[2] أن الإمام علي عليه السلام مر بقوم وهم يأكلون في شهر رمضان نهاراً، فقال: أَسَفْر أم مرضى !! قالوا: لا و لا واحدة منهما. قال: فمن أهل الكتاب أنتم، فتعصمكم الذمة و الجزية؟! قالوا: لا. قال: فما بال الأكل في نهار رمضان ؟! فقاموا إليه فقالوا: أنت.. أنت. ـ يشيرون إلى ربوبيته ـ .

فنزل الإمام عليه السلام عن فرسه، فألصق خده بالأرض، وقال: ويلكم إنما أنا عبد من عبيد الله فاتقوا الله وارجعوا إلى الإسلام فأبوا.

فدعاهم مرارا فأقاموا على كفرهم، فنهض إليهم وقال شُدُّوهم وثاقاً وعلي بالفعلة و النار والحطب.

---

(١) انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد،، ج ٨ ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق.

ثم أمر بحفر بئرين فحفرتا؛ فجعل إحداهما سربا والأخرى مكشوفة، وألقى الحطب في المكشوفة، وفتح بينهما فتحا وألقى النار في الحطب فدخن عليهم وجعل يهتف بهم ويناشدهم ليرجعوا إلى الإسلام فأبوا، فأمر بالحطب والنار فألقى عليهم فأحرقوا. يقول أحد الشعراء:

لترم بي المنية حيث شاءت إذا لم ترمني في الحفرتين

إذا ما حشتا حطبا بنار فذاك الموت نقدا غير دين

وبعد استشهاد الإمام علي عليه السلام ظهرت فرق أخرى يدّعون أن الإمام علي عليه السلام لم يمت وإنه في رفع للسماء، وأن الرعد صوته والبرق شيءٌ من نوره، فإذا سمعوا صوت الرعد أو رأوا شيئاً من وميض البرق قالوا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

وقالوا في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أغلظ قول، وافتروا عليه أعظم فرية، فقالوا: كتم تسعة أعشار الوحي.

ثم ظهرت فرقة أخرى من هذا التيار بزعامة المغيرة بن سعيد وهو مولى، فدّعى أن الإمام علي عليه السلام لو شاء لأحيا عاداً وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا.

وحاول أن يتسع في الدعوة إلى هذا التيار فاستأذن على الإمام الباقر عليه السلام وقال له أخبر الناس أني أعلم الغيب وأنا أطعمك العراق، فزجره الإمام عليه السلام زجراً شديداً وأسمعه ما كره، فانصرف عنه فأتى عبد الله بن محمد بن الحنفية فقال له مثل ذلك، وكان ابن الحنفية شديد القوى، ذا بأس، فوثب عليه فضربه ضرباً شديداً حتى شارف على الموت.

فلما شُفي من ضرب ابن الحنفية أتى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى، وكان محمد سكيتاً، فقال له كما قال للإمام الباقر عليه السلام ولابن الحنيفة، فسكت محمد فلم يجبه، فخرج و قد طمع فيه بسكوته، وقال أشهد أن هذا هو المهدي الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنه قائم أهل البيت وادعى أن علي بن الحسين علي عليه السلام أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن.

ثم قدم المغيرة الكوفة ودعا الناس إلى قوله واستهواهم واستغواهم، فاتبعه خلق كثير، وادعى على محمد بن عبد الله أنه أذن له في خنق الناس وإسقائهم السموم، وبث أصحابه في الأسفار يفعلون ذلك بالناس، فقال له بعض أصحابه: إنا نخنق من لا نعرف فقال: لا عليكم إن كان من أصحابكم عجلتموه إلى الجنة، وإن كان من عدوكم عجلتموه إلى النار.

ثم تفاقم أمر الغلاة بعد المغيرة و أمعنوا في الغلو فادعوا حلول الذات الإلهية المقدسة في قوم من سلالة الإمام علي عليه السلام وقالوا بالتناسخ وجحدوا البعث و النشور وأسقطوا الثواب والعقاب وقال قوم منهم إن الثواب والعقاب إنما هو ملاذ هذه الدنيا ومشاقها.

وتولدت من هذه المذاهب القديمة مذاهب متشددة ومتوغلة في الغلو والإلحاد من سابقيها، فخرجت فرقة تعرف بالنصيرية نسبة إلى محمد بن نصير النميري، وأخرى تدعى بالإسحاقية نسبة إلى إسحاق بن زيد بن الحارث، وكانت تدعي هذه الفرقة أن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب كان يقول بالإباحة وسقوط التكاليف، فأباحوا المحارم أجمع، ويدعون أن الإمام علياً عليه السلام كان شريكاً بالنبوة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما أدعوا تناسخ

الأرواح[1].

أسباب تولد هذا التيار:

تولد هذا التيار نتيجة أسباب عدة تتعلق بشخص الإمام علي عليه السلام، وأهمها:

إخبار الإمام أصحابه بالمغيبات:

إخبار الإمام علي عليه السلام أصحابه بالمغيبات من الأمور التي حار فيها الكثير ممن لا يرى فضل الإمام علي عليه السلام وإمامته، فمنهم من شك في الكلام المنسوب إليه في هذا الخصوص ونفى أن الإمام أخبر به، ومنهم من جعل إخباره بالمغيبات سبباً للاعتقاد بإلوهيته وربوبيته، وكلا الاتجاهين مخطئ، إذ إن إخباره بالمغيبات لم تكن إلا تعليماً من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا يقول الإمام علي صلوات الله وسلامه عليه: (.. والله لو شئت أن أخبر كُل رجُلٍ منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلتُ، ولكن أخافُ أن تكفروا فيَّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ..) بعدها يعلل كيفية علمه بهذه المغيبات عن طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (وقد عَهِدَ إليَّ بذلك كُلِهِ وبمهلكِ من يَهلك ومنجى من ينجُو ومآلِ هذا الأمر وما أبقى شيئاً يمُرُّ على رأسي إلاَّ أفرغهُ في أُذُنِيْ وأفضى به إليَّ)[2].

ونذكر من إنبائه للغيب على سبيل المثال ما حدث به ابن عباس حبر الأمة، عندما كان يرافق الإمام علي عليه السلام في التجهيز لخوض معركة الجمل،

(١) انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد: ج ٨ ص ١٢٢ وما بعدها بتصرف.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٧٥.

فسمع ابن عباس الإمام علي عليه السلام يقول: (والذي لا إله غيره ليظهرنّ على أهل البصرة، وليقتلنّ طلحة والزبير، وليخرجنّ إليكم من الكوفة ستة آلاف وخمسمائة وخمسون رجلاً..). يقول ابن عباس: فوقع ذلك في نفسي، فلما أتى أهل الكوفة خرجت، فقلت: لأنظرنّ، فإن كان كما تقول فهو أمر سمعه وإلا فهي خديعة الحرب، فلقيت رجلاً من الجيش فسألته، فو الله ما عتّم أن قال ما قال علي. قال ابن عباس: وهو ممّا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخبره[1].

صفاته الجسدية الخارقة:

من طبيعة الإنسان أن يبدأ من ضعف وينتهي بضعف في نهاية عمره، يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. ﴾.

الآية تؤكد على هذه السنة التي أودعها الله في خلقه من بني البشر، إلا أن الملاحظ من سيرة الإمام علي عليه السلام خلال مسيرة حياته أنه امتاز عن غيره بجسد خارق وشجاعة قل نظيرها، مما أذهلت الكثير ممن هم حوله. فمنذ اليوم الأول في معركته ببدر وكان عمره الشريف في بداية العشرينيات وكانت شجاعته التي أذهلت من حوله، فقتل نصف المقتولين من قتلى المشركين بينما المسلمون أجمع وتساعدهم الملائكة قتلوا النصف الآخر.

---

(١) المعجم الكبير: للطبراني: ج ١٠ ص ٣٠٥.

إلى هنا ورغم شجاعته غير المعهودة في قتل نصف عدد المقتولين ببدر إلا أنه كان في ريعان شبابه، لكن بعد أن نستعرض شجاعته وهو ابن الحادي والستين في موقعة الجمل وصفين والنهروان، وكيف يقتل بنفس الشجاعة والقوة التي كان يمتلكها في ريعان شبابه، فيضرب ضرباته الوتر، ويقتل في يومه وليلته ـ ليلة الهرير ـ خمسمائة وثلاثة وعشرين فارساً فهذا أمر خارق للعادة [1].

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي[2]: وأما الشجاعة فإنه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا اسم من يأتي بعده، ومقاماته في الحرب مشهورة يُضرب بها الأمثال إلى يوم القيامة.

وهو الشجاع الذي ما فرّ قط، ولا ارتاع من كتيبة، ولا بارز أحداً إلا قتله، ولا ضرب ضربة قط فاحتاجت الأولى إلى الثانية.

والغريب في الأمر أن العرب كانت تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابله، وأما قتلاه فافتخار رهطهم بأن الإمام هو من قتلهم فهذا مشهور بينهم، ولا يرون عيباً أن يُقتل أحد بيده.

قالت أُخت عمر بن عبد ودّ ترثيه:

لو كان قاتل عمرٍ غير قاتلهِ ... بكيتُهُ أبداً ما دمت في الأبد
لكنَّ قاتلهُ من لا نظيرَ لهُ ... وكان يُدعى أبوهُ بيضةَ البلَدِ

(١) انظر مروج الذهب: للمسعودي، ج ٢ ص ٣٨٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد: ج ١ ص ٢٠ بتصرف.

اجتماع الأضداد في شخصية الإمام:

من الظواهر التي تدعو للعجب في شخصية الإمام علي عليه السلام هي اجتماع الأضداد فيها، فالبشر بطبيعتهم لا تجتمع في شخصياتهم الشيء وضده، ومن العسير إن لم يكن من المستحيل أن يجتمعا في شخصية رجل واحد، فالعابد الزهاد المنزوي في ركن مسجده تجد أن الصفات التي يتخلق بها العزلة والكآبة وعدم البشاشة وعدم مخالطته لمجتمعه، ونجد نقيضه هذا من شخص اجتماعي، فهو دائماً بشوش الوجه متفائلاً ضاحك الثغر لا يحب العزلة، ويندر أن تجد هاتين الخصلتين المتناقضتين مجتمعتين في شخص واحد.

وهذا ما لا نجده في شخص الإمام علي عليه السلام، إذ نجده في المحراب كما يصفه ضرار: (يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين) حتى يتكوم على الرمل جسداً لا حراك فيه، يغمى عليه فلا يفيق إلا بعد فترة طويلة، ووجهه ينضح من العرق والخوف من الله سبحانه وتعالى.

وإذا أصبح الصباح فإنك تجده في السوق يتفقد أحوال الرعية، أو تجده في مسجد الكوفة على دكّة القضاء يقضي بين الناس، وتجده في وقت آخر يسعى في حاجة أهله يحمل بردائه شيئاً من التمر ويأوي إلى البيت.

أيضاً لو تأملنا الصلابة والصرامة والقسوة التي يتحلى بها في حروبه ضد أعداء الله ورسوله، فيرى الدماء تجري أمامه وبين يديه، وأشلاء القوم متفرقة في الأرض، وسيفه يقطر من دمائهم، وهو على ذلك الرجل الرقيق الذي يبكيه فقير جائع، رقيق مع المساكين حتى يظن أحد المارة أنهم منهم.

جمعت في صفاتك الأضداد فلهذا عزت لك الأندادُ
خلق تُخجلُ النسيم من اللّطـ ـف وبأسٌ يَذوب منه الجَمادُ[1]

هذه الصفات المتضادة في حياة الإمام عليه السلام نجدها تدهش من صحبه وتعرف عليه، حتى غالى فيه الكثير لما يراه منه من العجب، فيظن أن مثل هذه الصفات من الاستحالة بمكان اجتماعها في رجل واحد إلاَّ أن يكون إلهاً أو غير بشري على أقل تقدير.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه للنهج[2]: (كان أمير المؤمنين عليه السلام ذا أخلاقٍ متضادة: فمنها ما ذكره الرضي رحمه الله، وهو موضع التعجب، لأن الغالب على أهل الشجاعة والإقدام والمغامرة والجرأة أن يكونوا ذوي قلوب قاسية، وفتكٍ وتمرد وجبرية، والغالب على أهل الزهد ورفض الدنيا وهجرانِ ملاذها والاشتغال بمواعظ الناس وتخويفهم المعادَ وتذكيرهم الموتَ، أن يكون ذوي رقّة ولين، وضعف قلب، وخورِ طَبْع، وهاتان حالتان متضادتان، وقد اجتمعتا له عليه السلام.

ومنها أن الغالب على ذوي الشجاعة وإراقة الدماء أن يكونوا ذوي أخلاق سِبْعيّة، وطِباع حوشية، وغرائز وحشيَّة، وكذلك الغالب على أهل الزهادة وأرباب الوعظ والتذكير ورفض الدنيا أن يكونوا ذوي انقباض في الأخلاق، وعبوس في الوجوه، ونِفار من الناس واستيحاش.

وأمير المؤمنين كان أشجع الناس وأعظمهم إراقة للدم، وأزهد الناس وأبعدهم على ملاذ الدنيا، وأكثرهم وعظاً وتذكيراً بأيام الله ومثُلاته،

(١) ديوان صفي الدين الحلي: ص ٨٨.
(٢) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد المعتزلي، ج ١ ص ٥١ / ٥٣، بتصرف.

وأشدهم اجتهاداً في العبادة وآداباً لنفسه في المعاملة. وكان مع ذلك ألطف العالم أخلاقاً، واسفرهم وجهاً، وأكثرهاً بِشراً، وأوفاهم هشاشة، وأبعدهم عن انقباض موحِش، أو خُلُق نافر، أو تجهّم مباعِد، أو غِلظة وقظاظة تنفِر معها نفس، أو يتكدّر معها قلب، حتى عيب بالدعابة ..

ومنها أن الغالب على شرفاء الناس ومن هو من أهل بيت السيادة والرياسة أن يكون ذا كبرِ وتيهٍ وتعظم وتغطُرُس، خصوصاً إذا أضيف إلى شرفهِ من جهة النسب شرفه من جهات أخرى، وكان أمير المؤمنين عليه السلام في مصاص الشرف ومعدنه ومعانيه، لا يشكّ عدوّ ولا صديق أنه أشرف خلق الله نسباً بعد ابن عمه صلوات الله عليه، وقد حَصَل له من الشرف غير شرف النسب جهاتٌ كثيرة متعددة، قد ذكرنا بعضها، ومع ذلك فكان أشدَّ الناس تواضعاً لصغير وكبير، وألينهم عريكة، واسمحهم خُلقاً، وأبعدَهم عن الكِبر..

ومنها أن الغالب على ذوي الشجاعة وقتل الأنفس وإراقة الدماء أن يكونوا قليلي الصفح، بعيدي العفو،لأن أكبادهم واغرة، وقلوبهم ملتهبة، والقوة الغضبية عندهم شديدة، وقد علمتَ حال أمير المؤمنين عليه السلام في كثرة إراقة الدم وما عنده من الحلم والصفح، ومغالبة هوى النفس، وقد رأيتَ فعله يوم الجمل..

ومنها أنا ما رأينا شجاعاً جواداً قط، كان عبدالله بن الزبير شجاعاً وكان أبخلَ الناس، وكان الزبير أبوه شجاعاً وكان شحيحاً...، وقد علمت حالَ أمير المؤمنين عليه السلام في الشجاعة والسخاء كيف هي، وهذا من أعاجيبه أيضاً عليه السلام).

اغتيال الإمام علي عليه السلام في محرابه:

اغتيال الإمام علي عليه السلام واستشهاده هي أكبر نتيجة لتلك الأدوار التي مارسها، وهذه نتيجة أراها طبيعية في شخص أراد تغيير واقع كامل مليء بالفساد والانتهازية من قبل كبار القوم ووجهائهم، وقام بحرمان عائلة كانت تخوض في مال الله خوضاً ولم يكن لهم إلا التغني بالماضي في ظل حكومته وخلافته.

الأدوار التي قام بها من إصلاحه للوضع الاقتصادي وعزله للولاة وإقامته للحدود المعطلة وغيرها لم تكن لترضي شريحة كبيرة من المجتمع، من المنافقين والمنتهزين ومن كانت لهم الميزات في ظل حكومة الخليفة عثمان، وبالتالي يتمنون الخلاص منه وبأي وسيلة وثمن.

إضافة لهؤلاء الشريحة كان مُرَّ الحق الذي مارسه الإمام علي عليه السلام على رعيته، وكأنهم أسنان المشط لا يفرق بين أحدهم والآخر، فيعاقب المخطئ والمرتكب للمحرم أيّاً كانت هويته ومكانته الاجتماعية، وإذا نظرنا إلى ما كان يدسه معاوية من جواسيس ومتآمرين على حكومة الإمام عليه السلام يحاولون النيل منه وإسقاط حكومته.

كل هؤلاء نجد أن الغاية الأولى والأمنية الرئيسية هي قتل الإمام عليه السلام وانتهاء فترة خلافته، ولذا كانت النتيجة متوقعة من الوضع الذي كان يعيش فيه.

كان الإمام علي عليه السلام في أُخريات حياته كثير التلهف إلى لقاء أصحابه

المخلصين، من أمثال عمار بن ياسر وابن التيهان [1] وذي الشهادتين[2] وغيرهم ممن عرفوه حق المعرفة، وكانوا له خير سند حين خذله أصحابه الخانعين إلى أجواء الراحة والدعة والخذلان.

يقول الإمام علي عليه السلام [3]: (.. أينَ إخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحقِّ، أين عمارُ وأين ابن التَّيِّهان وأين ذو الشَّهادتين، وأين نُظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنيَّة وأبرِدَ برُءُوسِهِم إلى الفجرة..) ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة فأطال البكاء.

تم اغتيال الإمام علي عليه السلام واستشهاده على يد عبدالرحمن بن ملجم، وقد اختلف بعض المؤرخين في تحديد من له العلاقة المباشرة في عملية الاغتيال، وبين أيدينا نظريتان في هذا الشأن:

---

(١) أبو الهيثم بن التيهان مالك بن التيهان الأنصاري الأوسي، وهو مشهور بكنيته، شهد بيعة العقبة الأولى والثانية، وكان أحد الستة الذين لقوا قبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة قبل بيعة العقبة الأولى وهو أول من بايع فيها. وشهد أبو الهيثم بدرا واحدا والمشاهد كلها، وتوفي في خلافة عمر بالمدينة سنة عشرين، وقيل قتل بصفين مع الإمام علي عليه السلام. انظر الأعلام من الصحابة والتابعين: للشاكري، ج ٩ ص ١٢٥.

(٢) خزيمة بن ثابت الأوسي الأنصاري، جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهادته كشهادة رجلين لقصة مشهورة، يكنى أبا عمارة، شهد بدرا وما بعدها من المشاهد، وكانت راية بنى خطمة بيده يوم الفتح، كان مع الإمام علي عليه السلام في واقعة الجمل وقتل في صفين بعد قتل عمار بن ياسر. شرح النهج: لابن أبي الحديد: ج ٨ ص ٤٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٨٢.

النظرية الأولى:

وهذه النظرية تُلزم الخوارج دم الإمام، وتحكي الرواية مؤامرة الخوارج منذ كانوا بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج، فلما انتهى موسمه عقدوا مؤتمراً عرضوا فيه الأحداث الجسام التي مُني بها العالم الإسلامي، والتي أدّت إلى سفك الدماء واختلاف كلمة المسلمين، وعزوها إلى ثلاثة أشخاص هم: الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص.

وأجمع رأيهم على اغتيال هؤلاء الأشخاص، وانبرى إلى تنفيذ عملية اغتيالهم كلٌ من عبدالرحمن بن ملجم إذ تعهد بقتل الإمام علي عليه السلام، والحجّاج بن عبدالله الصريمي تعهّد بقتل معاوية، وعمرو بن بكر التميمي تعهد بقتل عمرو بن العاص، وعيّنوا وقتاً خاصاً لاغتيالهم، وهو ليلة الثامن عشر من شهر رمضان ساعة خروجهم إلى صلاة الصبح.

وبعد انفضاض المؤتمر أقاموا بمكة المكرمة أشهراً، ثم اعتمروا في شهر رجب، وافترقوا وقصد كل واحد منهم البلد الذي تعاهد على القيام بعملية الاغتيال، ولما أتى ابن ملجم الكوفة ليبايع الإمام علي عليه السلام رده مرتين وفي الثالثة بايعه، فأخذ عليه المواثيق أن لا ينكث بيعته.

فما مضت الأيام حتى أنبرى الخبيث بضربة على رأس الإمام علي عليه السلام فقدَّ جبهته، وانتهت الضربة الغادرة إلى دماغه، فلما أحس الإمام بلذع السيف انفرجت شفتاه عن ابتسامة ورضا بقضاء الله، وانطلق صوته يدوي في رحاب المسجد (فزت ورب الكعبة).

النظرية الثانية:

إِن اغتيال الإمام علي عليه السلام على يد ابن ملجم كان بتخطيط من معاوية بن أبي سفيان وبمساعدة مباشرة من عميله في الكوفة الأشعث بن قيس.

ويدعم هذه النظرية الآتي [1]:

١. مرافقة الأشعث بن قيس عبدالرحمن بن ملجم وقت اقترافه الجريمة بقتل الإمام علي عليه السلام، وهو الذي نبهه عندما قتل الإمام علي عليه السلام وصاح: (النجاء، النجاء بحاجتك.. فقد فضحك الصبح) [2]، ولما سمعه حجر بن عدي صاح به: قتلتهُ يا أعور ؟.

إن مؤامرة اغتيال الإمام علي عليه السلام قد أحيطت بكثير من السر والكتمان؛ فما الذي أوجب إطلاع الأشعث بن قيس عليها ودعمه لها، وكيف عرف التوقيت الذي قرره ابن ملجم لقتل الإمام.

وروى البلاذري [3] أن ابن ملجم نام تلك ليلة اغتيال الإمام عند الأشعث بن قيس يناجيه، حتى قال له الأشعث: (قم فقد فضحك الصبح)، وفي هذه إشارة إلى مشاركة الأشعث بن قيس لعبدالرحمن بن ملجم في قتله للإمام.

---

(١) للاطلاع على النظرية بشكل موسع راجع كتاب: سيرة الإمام علي عليه السلام : لحاتم الطائي، ج ٧ ص ٧٠ وما بعدها. وكتاب: موسوعة الإمام علي عليه السلام : للقرشي، ج ١١ ص ٢٣٦.

(٢) انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ٦ ص ١١٧.

(٣) انظر أنساب الأشراف: للبلاذري ص ٤٩٣. بتصرف.

٢. حياة اللعين ابن ملجم المرادي وكما يرويها المؤرخون بسيطة أشد البساطة، كان معلماً للقرآن الكريم، ولم يعرف عنه أنه من أهل الغنى والثروات، بل يكسف قوت يومه من بيت مال المسلمين جراء تعليمه للقرآن، والحال أن السيف الذي اشتراه بقيمة ألف درهم وسمه بألف أُخرى !!، بالإضافة إلى الأموال التي أمهر بها خطيبته اللعينة قطام، والبالغة ألف درهم، وعبد وقينة !! فمن أين له تلك الأموال ؟ فعلى أقل تقدير مجموع الأموال التي بين يديه ثلاثة آلاف درهم، وهذا المبلغ لا يملكه إلا ذوي الدخل العالي بذلك العصر.

٣. إن ابن ملجم كان على علاقة وثيقة واتصال بعمرو بن العاص، وكان معه حينما فتح مصر، وأمره بالنزولِ بقربه. ويروي الصفدي[١] أن الخليفة عمر بن الخطاب أوصى عمرو بن العاص في أثناء ولايته على مصر برعاية عبدالرحمن بن ملجم، وإعطائه دار سُكنى فيها [٢].

٤. لم يكن ابن ملجم من سكان أهل الكوفة قطعاً، إذ لم يكن عنده بيت في هذه المدينة، ولذا اضطرّ للجوء إلى قبيلة بني مراد للضيافة عندهم، وهذا ما يؤيد أن الخليفة عمر بن الخطاب أقطعه أرض سُكنى بمصر، وهذا ما يدعو للشك، إذ إن أيام قدومه للكوفة في أشد الصراع العلوي الأموي.

---

(١) انظر تاريخ الإسلام: للذهبي، ج ٣ ص ٦٥٣.

(٢) العبارة الأخيرة: (وإعطائه دار سُكنى فيها) منقولة عن كتاب الأنساب: للسمعاني، ج ١ ص ٤٥١.

٥. تعارض ما ينقله بعض المؤرخين من كونه من عُباد الخوارج مع شربه للخمر ليلة قتله الإمام علي عليه السلام وإنفاقه مائة ألف درهم فضة في ليلة حمراء، ولبسه الحرير وغيرها من الأمور التي تدعو للشك في أن القاتل ذا نهج وولاء خارجي.

٦. أبو الأسود الدؤلي ـ وهو من خواص الإمام علي عليه السلام ومن تلاميذه ـ ألقى تبعة قتل الإمام عليه السلام على بني أمية، وذلك في مقطوعته التي رثا بها الإمام علي عليه السلام:

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... فلا قرَّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طُرّاً أجمعينا ؟
قتلتم خير من ركب المطايا ... ورحلها ومن ركب السّفينا

هذا إجمال ما ينقل من شواهد وأدلة تدلُّ على أَنَّ ابن ملجم لم يقتل الإمام علياً عليه السلام ثأراً منه لقتلى الخوارج بواقعة النهروان، وإنما كان عميلاً سرياً دسّه عمرو بن العاص بالكوفة، وشاركه على إتمام مهمته الأشعث بن قيس بأمر وتخطيطٍ من معاوية بن أبي سفيان نفسه.

الفصل الثالث:

العوامل الموضوعية لسياسة الإمام علي

من الواضح أن الإمام علي عليه السلام منذ أن تسلم زمام الحكم بعد انهيار خلافة عثمان على يد الثوار وحتى آخر يوم من حياته الشريفة لم يقبل أنصاف حلول، فلم يرتض لمنهجه السياسي أن يداهن في سبيل الحق، ولم يرض أن يستثني أحداً في معاملة على حساب مشروعه الإصلاحي.

هذا الموضوع بالذات أخذه عليه بعض الباحثين وقالوا: لابد للإمام علي عليه السلام أن يتبع المرونة في مثل تلك المساومات التي طُرحت بين يديه.

فمعاوية بن أبي سفيان مثلاً كانت له قاعدة جماهيرية واسعة النطاق في الشام، فلماذا يقوم الإمام علي عليه السلام بعزله، في حين لو تركه لفترة زمنية على كرسي الولاية ومن ثم ثبت أركان خلافته في مختلف الأقاليم ومن ثمَّ عزله دون أن يريق أي دماء للمسلمين في حروب طاحنة لكان أحسن التدبير سياسياً، ولدامت حكومته وخلافته وقتاً أطول مع وجود استقرار أكثر مما هي عليه.

وكذلك الأمر عندما نتحدث عن الصحابيين طلحة والزبير؛ ما المشكلة الكبيرة التي قد تواجهها الأمة الإسلامية حين يعطيهما الإمام شيئاً

من المال حين سألاه، أو حين يعينهما على ولايتي الكوفة والبصرة، ونتيجة تطبيقه لهذا النوع من التنازل فإنه يكسب توحيد الأمة ويحقن دمائها، كما يمكنه أن يلتفت إلى بناء الأمة من الداخل والخارج بدل أن يزج بها في حروب دامية.

ويقول البعض بأن الإمام عليه السلام عندما بدأ بمشروعه الإصلاحي بالدولة دون أن يقبل مبدأ المساومة فإنه يترك بذلك قاعدة فقهية مهمة تُعرف بقاعدة التزاحم، وذلك حين يتوقف (إنقاذ نفسٍ محترمةٍ من الغرق على اجتياز أرضٍ مغصوبةٍ لا يرضى صاحبها باجتيازها حيث تسقط هنا حرمة هذا المالك ورضاه؛ لأنّ النتيجة أهمّ من هذه المقدمة، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض غزواته مثالاً مشابهاً لهذا المثال:

كان الجيش الإسلامي مضطرّاً إلى الخروج من المدينة عن طريقٍ معيّن، وكان في هذا الطريق مزرعة لأحد الصحابة، وكان من طبيعة مرور هذا الجيش في المزرعة إتلاف محاصيلها الزراعيّة.

هذه المحاصيل التي لم يرضّ أن يقدّمها مالك المزرعة في سبيل الإسلام ويسمح بمرور الجيش عليها، ولذلك احتجّ وصرخ وقَدِم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: مزرعتي ومالي، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يجبه بحرفٍ واحد، ولكنه وجّه الأمر إلى الجيوش بالمرور، وكان نتيجة ذلك إتلاف المحاصيل.

وما صدر هذا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلاَّ لأن النتيجة كانت أهمّ من المقدمة؛ ولذلك يقال في الفقه: إذا توقف الواجب على مقدمةٍ محرمةٍ وكان ملاك الوجوب أقوى من الحرمة يقدّم الواجب على الحرام.

وعلى هذا الضوء حينئذٍ يمكن أن تثار الظاهرة التي استعرضناها في حياة أمير المؤمنين عليه السلام كحاكم، وهي: أنه لماذا لم يطبق هذه القاعدة في سبيل استباحة كثيرٍ من المقدمات المحرمة ؟

أليس إجماع الرأي عليه ؟ أليس تملكه لزمام القيادة في المجتمع الإسلامي أمراً واجباً محققاً لمكسبٍ إسلاميٍّ كبير ؟ لأنه سوف يفتح ـ إذا تيسّر له زمام القيادة ـ أبواب الخيرات والبركات ويقيم حكومة الله في أرضه، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف الذي يتوقف على مقدمة محرمة، من قبيل إمضاء ولاية معاوية بن أبي سفيان مدّةً من الزمن، أو إمضاء الأموال المحرمة التي وصلت لأيدي أميّة من عثمان بن عفان.

لِمَ لَمْ يُقدم الإمام علي عليه السلام على ارتكاب المحرم في سبيل الواجب الأهم الذي قدّم في باب الفقه)[1].

الواقع أن الإمام علي عليه السلام كانت لديه عوامل موضوعية اضطرته إلى عدم قبوله لهذه المساومات وأنصاف الحلول ولو كانت من باب قانون التزاحم الفقهي، وبإمكاننا أن نسلط الضوء على هذه العوامل تباعاً:

العامل الثوري:

عند تسلم الإمام علي عليه السلام الخلافة على الدولة الإسلامية لم يكن تسلمه إياها بظرف طبيعي، بموت أحد الخلفاء موتاً طبيعياً أو من مبدأ الشورى كالخليفة أبي بكر وعثمان، وإنما وصل إلى كرسي الخلافة والحكم

(١) أئمة أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة المحمدية الإسلامية، محاضرات للسيد محمد باقر الصدر، ص ١١٨ - ١١٩.

بعد ثورة عارمة قُتل فيها الخليفة الذي كان قبله، فكان هذا العامل الأكبر في بيعته واعتلائه كرسي الخلافة.

والثوار أرادوا باستبدالهم الخليفة السابق بالإمام علي عليه السلام أن يقوم بإصلاح ما أفسده ذلك الخليفة، وأن ينتهج نهجاً لا مساومة فيه، ويبادر في تغيير الوضع الفاسد الذي كان ينتهجه الخليفة الذي قبله.

أي قائد سياسي يأتي إلى منصة الحكم في ظل ثورة جماهيرية عارمة لا يمكن له أن ينتهج نفس منهج الحاكم الذي سبقه، والتي هي بالأساس سبب الثورة عليه والإطاحة به، وإنما لابد أن ينتهج النهج العقلائي بسلوكه نفس الاتجاه الذي كان يطالب به الثوار، خصوصاً إذا كانت مطالبهم شرعية ولا غبار عليها.

ولو كانت الفرضية التي كما أرادها الكُتاب ممن انتقد سياسته، فترك الولاة كما هم، وأعطى طلحة و الزبير ما أرادا، فماذا سيكون رأي الثوار الذين بايعوه منذ أيام قلائل ؟

كان لهم الأمل في تغيير الواقع الفاسد فإذا به يقر الولاة على ظلمهم ونهبهم لمقدرات الأمة، وهو في ذات الوقت يعطي طلحة والزبير وأضرابهم ما كانوا يتأملونه من بيت مال المسلمين !!

إذن عاد الخليفة عثمان بمسمى (علي) فقط، فلا يكون أمام الثوار إلا أن يطالبوا من جديد بعزله وتنحيه عن منصب الخلافة أو سارعوا لقتله واستخلاف آخر مكان، هذا أولاً.

ثانياً: إن ثورة انطلقت شرارتها على الخليفة نفسه فقتلته وأزالته عن

كرسي الحكم والتسلط لفساده وظلمه ونهبه لخيرات الأمة ومقدراتها لحريٌ بها أن تحُتضن، كي لا يتجرأ أي شخص وإن علت مكانته الاجتماعية بأن يظلم ويبطش ويتعدى على حدود الله ولا يفكر ساعة لأن مصيره سيكون القتل كما قتل من هو أعلى منه مكانة ومنصب، هذا الهاجس يضع نقطة حمراء في قلب كل والٍ وخليفة ويحسب ألف حساب لغضب الناس إن تجاوز حدوده التي رسمها الله له

هذا الضمير الثوري لو أن الإمام علي عليه السلام اقنع الثوار بأن يلتزموا الصمت حيال إعطائه الأموال لمن لا يستحق، وحيال تثبيته لمعاوية بن أبي سفيان، فإنه يشجع الظلمة والفاسقين على الامتداد بمسيرتهم دون أن يضعوا في أنفسهم الخوف من ثورة الناس وغضبهم، فيكون الإمام علي عليه السلام الحصن لهؤلاء الظلمة والفسقة بدل أن يكون هو الضمير الذي يحرك الثوار في رفض الظلم والعدوان ونهب ثروات الأمة الإسلامية.

العامل الرسالي:

من المهم إذا أردنا أن نستعرض أدوار الإمام علي عليه السلام السياسية أن تكون لغتنا لغة إسلامية رسالية محمدية، لا أن تكون لغتنا مجردة من الإسلام والدين، ونلهج وراء الشعارات السياسية البراقة الخالية من هذا المضمون.

الإمام علي عليه السلام عندما وصل إلى منصب الخلافة والحكم كان يعلم أن الفترة الزمنية التي تُتاح له فترة قصيرة جداً مقارنة بالواجب المناط إليه من إعادة الأمة إلى منبعها الأصيل.

فمنذ الأيام الأولى لرحيل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم سنة الحادي عشر للهجرة والأمة الإسلامية تعيش يوماً بعد يوم حالة من التغييب لسياسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفرضت سُنن من قبل الخلفاء لم تكن من السياسية النبوية ولا من النهج القرآني[1].

هذه الحالات وغيرها تقود الأمة الإسلامية إلى الانحدار في تطبيق تعاليم السماء، وتفرض عليهم تعاليم جديدة يحسبها الجيل الذي يليهم أنها من الإسلام، وهي ليست من الإسلام في شيء.

فإذا كان هذا العهد الأول من بعد الرسالة المحمدية تحرف سنته فيكف سيكون حالها بعد قرن من الزمن أو قرنين ؟ هذا الهم الرسالي فرض على الإمام علي عليه السلام أن يكون حازماً وصارماً وأن لا يقبل بأنصاف الحلول، فتُغيب الأمة الإسلامية عن عهدها الرسالي الإسلامي شيئاً فشيئاً

(١) لا يمكننا التوسع في هذا الموضوع وطرح الاجتهادات الخاصة للخلفاء الثلاثة في مقابل النص النبوي الشريف، وبالإمكان الرجوع إلى الكتب المختصة بهذا الموضوع ومنها كتاب: (النص والاجتهاد) تأليف الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي قدس الله سره، لكن يمكننا أن نشير أن من ضمن هذه السياسة في إخفاء أثر السياسة النبوية الرسالية إخفاء أحاديثه ومنع تدوين السنة، وعدم السماح بتداولها في الوقت الذي يطالب فيه الخليفة من الناس أن يستنوا بسننه الذي يفرضها هو عليهم قسراً.
هذا الحظر على الصحابة من قبل الخلفاء في نشر أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعلت من سنته ورسالته الإسلامية غير متداولة إلا بين الحفظة منهم. يقول الخليفة عمر: (أقلوا الرواية عن رسول الله إلا في ما يعمل به)، وقد روى ابن سعد في الطبقات ج ٥ ص ١٤٠: (إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب فأنشد الناس أن يأتوه بها، فلما أتوه بها أمر بتحريقها). وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق ج ٣٩ ص ١٨٠: أن عثمان قال وهو على المنبر: (لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يُسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر).

حتى يكون الإسلام غريباً، وتكون الجاهلية هي المسيطرة على الأمر كله.

يقول الإمام علي عليه السلام: (إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، يجري الناس عليها ويتخذونها سنة، فإذا غير منها شيء قيل: قد غُيرت السنة، وقد أتى الناس منكراً ثم تشتد البلية وتسبى الذرية وتدقهم الفتنة كما تدق النار الحطب، وكما تدق الرحا بثقالها ويتفقهون لغير الله..) [1].

ويقول عليه السلام: (وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله، ويتولى فيها رجال رجالاً، ألا إن الحق لو خلص لم يكن اختلاف، ولو أن الباطل خلص لم يخفَ على ذي حجى، لكنه يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان فيجللان معاً..) [2].

ويقول عليه السلام: (قد عملت الولاة قبلي أعمالاً خالفوا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمدين لخلافه، ناقضين لعهده، مغيّرين لسنته..).

إلى أن يقول: (والله لقد أمرت الناس أن لا يجتمعوا في شهر رمضان إلا في فريضة، وأعلمتهم أن اجتماعهم في النوافل بدعة، فتنادى بعض أهل عسكري ممن يقاتل معي: يا أهل الإسلام غيّرت سنة عمر، ينهانا عن الصلاة في شهر رمضان تطوعاً) [3].

---

(١) معالم المدرستين: للعسكري، ج ٢ ص ٣٥٣.

(٢) الكافي: للكليني، ج ٨ ص ٥٨.

(٣) مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة): للميرجهاني، ج ٢ ص ٦٠.

العامل التربوي:

ينصح علماء التربية أن لا يكون المربي متناقض السلوك والأقوال، كما لو منع الأبوان الطفل مثلاً عن الكذب والتصرفات العنيفة فيجب أن يمتنعا هما عنها أيضاً، إلى جانب ضرورة وجود قدر معين من التعليم العملي والذي يسهل كثيراً من عمليتهما التربوية [1].

الأمة الإسلامية عند تسلم الإمام علي عليه السلام الخلافة كانت في وضع متدهور، ومصير الأمة كان بيد بني أمية في كثير من جوانبها، وغير خافٍ على كل من قرأ التاريخ أن نزعتهم نزعة متسلطة قيصرية، يتحكمون في مصائرهم وينهبون ثروات الأمة ومقدراتها، ويتجهون بالأمر إلى الملكية التي لا ترعى الإسلام من بعيدٍ ولا من قريب[2].

لذا كان الإمام علي عليه السلام بحاجة إلى أن يبني قاعدة رسالية عقائدية إسلامية واعية تكون بمثابة الخط الصامد للإسلام حينما يتعرض للخطر، ويكون هو المربي لهم والقدوة التي يقتدون بها.

هذه الصفوة المختارة ذات الوعي العالي كأبي ذر وعمار وسلمان والمقداد ومالك الأشتر وغيرهم هم النواة الأولى التي كان ينشئها الإمام

---

(١) انظر كتاب الكذب والسرقة: لأيوب شحيحي، ص ١ وما بعدها.

(٢) يقول معاوية بن أبي سفيان ـ عندما صالحه الإمام الحسن عليه السلام ـ في خطبة له: (إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون، ألا وإني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منه).
انظر تاريخ ابن كثير: ج ٨ ص ١٣١، وغيره من المؤرخين باختلاف بعض الألفاظ واتحاد المعنى.

علي عليه السلام في مواجهة الواقع الفاسد والانحراف العقائدي لابد أن ينظروا إليه في أفعاله وأقواله كالقدوة العملية التي يقتدون بها، فهو يحافظ بالتالي على صفاء وطهر عمليته التربوية، فلا يساوم في توزيعه للأموال، ولا يضع والياً ظالماً جائراً يستحل محارم الله كمعاوية بن أبي سفيان، ولا يرضخ للمساومات التي تمارس ضده، بل يبقى إنساناً صلباً لا تزعزعه الضغوطات، بل يترفع عنها وإن كان لها مدخل شرعي يفترضه البعض، فيكون بذلك قد بنى أنموذجاً حياً لتلامذته وأصحابه، يضحون بأنفسهم وأرواحهم في سبيل الوقوف أمام الظلم والعدوان، لا يساومون على مبادئهم، ولا يداهنون في الحق بل يسارعون في رفض الفساد والظلم وتبيان الحق الذي أنزله الله سبحانه وتعالى.

العامل التوعوي:

حرص الإمام علي عليه السلام على أن يدرك المجتمع الإسلامي أن المعركة بينه وبني خصومه وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان كانت معركة إسلام وجاهلية، وليس معركة خليفة وحاكم تمت مبايعته ويحاول أن يفرض نفسه على الأمة، فلا يسمع إلا صوته ولا يقبل مشورة أحد.

لو أقر الإمام علي عليه السلام معاوية بن أبي سفيان والياً على الإقليم الشامي لرسخ عند المسلمين أن أفعال معاوية وأعماله وتصرفاته من ظلم واستبداد وقتل ونهب للثروات ما هي إلا ضمن الشرعية الإسلامية، وهذا ما لا يكون من إمامٍ كعلي بن أبي طالب عليه السلام.

ونلاحظ عندما نستعرض الرسائل المتبادلة بين الإمام علي عليه السلام

ومعاوية هذا الأمر بشكل واضح وجلي، فهو وبالرغم من أن معاوية كان والياً من قبل الخليفة الثاني عمر والثالث عثمان إلا أن معالم الممارسات الجاهلية في مقابل الإسلام واضحة وجلية.

لذا كان يخاطبه في إحدى رسائله[1]: (وإنما أنت طليقُ بن طليقٍ، لعيناً بن لعين، وثنيٌ بن وثني، ليست لك هجرة ولا سابقة ولا منقبة ولا فضيلة، وكان أبوك من الأحزاب الذين حاربوا الله ورسوله، فنصر الله عبدهُ وصدق موعده وهزم الأحزاب وحده).

ويقول في رسالة أخرى له عليه السلام : (أما بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك الشيطان الرجيم الحق أساطير الأولين ونبذتموه وراء ظهوركم، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم، والله متم نوره ولو كره الكافرون، ولعمري ليتمّنّ النور على كرهك، ولينفذنّ العلم بصَغارك، ولتجازينّ بعملك، فعثْ في دنياك المنقطعة عنك ما طاب لك، فكأنك بباطلك وقد انقضى، وبعملك وقد هوى، ثمّ تصير إلى لظى، ولم يظلمك الله شيئاً، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد !)[2].

ويقول في وصف هذه الحرب الدائرة بينه عليه السلام وبين معاوية: (ألا وإن الشيطان قد جمع حزبهُ واستجلب خيلهُ ورَجِلهُ، وإن معي لبصيرتي مالبَّستُ على نفسي ولا لُبِّسَ عَلَيَّ ..)[3].

ويقول في رسالة إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة في وصف ما

(١) مناقب آل أبي طالب: لابن شهرآشوب، ج ٢ ص ٣٥٠.
(٢) شرح النهج: ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٣٥.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة رقم ١٠.

ينوي عليه من قتال معاوية: (.. وسأجهدُ في أن أطَهِّرَ الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرُج المدرةُ من بين حَبِّ الحصيد..) [1]. ويقول في خطبة له عليه السلام: (.. صاحبكُم يُطيعُ الله وأنتم تعصونهُ وصاحبُ أهل الشام يَعصِي الله وهم يُطيعُونهُ..) [2].

عندما يوثق الإمام علي عليه السلام هذا الأمر في رسائله وكتبه وخطبه فإنه يحرص على أن يبين ويوعي الأمة على هذا الجانب، فلا يعتقد من يعاصره ومن يأتي من بعده أن قتاله لمعاوية قتال عزل لوالٍ عصاه ولم يستجب لأوامره، وإنما كان عزلاً للباطل الجاهلي في مقابل الإسلام المحمدي.

عامل الإقتداء بالسيرة النبوية:

أتت قريش إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحاول أن تثنيه عن الدعوة الإسلامية، فعرضت عليه المُلك في مقابل أن يترك الدعوة إلى الله فرفض، فعرضوا عليه المال حتى يكون أثرى أهل قريش أجمع فرفض، فعرضوا عليه أن يزوجوه أجمل نساء العرب فرفض.

ولم تلقَ هذه العروض أي أذن صاغية من النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، فاتجهت قريش في مفاوضات أخرى، وأن يعبدوا إله النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة مقابل أن يعبد آلهتم السنة التي يليها فرفض.

وقد لخص موقفه الصلب بمقولته صلى الله عليه وآله وسلم المشهورة لعمه أبي طالب: (يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا

---

(١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٥.

(٢) المصدر السابق: الخطبة رقم ٩٧.

الأمر حتى يظهرهُ الله أو أهلك فيه ما تركته)[1].

فمع أن الدعوة الإسلامية في بدايات عهدها، وكانت قريش هي الجانب القوي عسكرياً ومادياً ومعنوياً، فلِمَ لم يرتض النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنصاف الحلول التي عرضوها عليه ؟

القضية لم تكن تُحسب على أساس الظروف سياسية طبيعية، وإنما هو الدين الإسلامي الذي لا يقبل أنصافاً للحلول و المفاوضات على أساس إقامة دين الله تعالى أو تأجليه.

والسياسة العلوية في عدم انتهاجها لأنصاف الحلول تنبئ عن انعكاس منها للسياسة النبوية، فكما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن ليقبل بالمساومة فلن يقبل الإمام علي عليه السلام أن يساوم في مواقفه أجمع، وإنما كان بذلك يقتدي بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم [2].

---

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٦٧.

(٢) عندما أجبر الإمام علي عليه السلام على التحكيم في معركة صفين حضر عنده عمرو بن العاص نيابة عن أهل الشام ليكتب بحضوره الكتاب، فكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين، فقال عمرو: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم وأمَّا أميرنا فلا. فقال الأحنف: لا تمحُ اسم إمارة أمير المؤمنين، فإنِّي أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً، فلا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً. فقال الأشعث بن قيس: امحُ هذا الاسم، فمُحي. فقال الإمام علي عليه السلام : (الله أكبر! سُنَّة بسُنَّة، والله إنِّي لكاتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحديبية فكتبتُ: محمَّد رسول الله، وقالوا: لستَ برسول الله، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فأمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمحوه، فقلتُ: لا أستطيع، فقال: أرنيه. فأريته، فمحاه بيده، وقال: إنَّك ستُدعى إلى مثلها فتجيب).
انظر الكامل في التاريخ: لابن الأثير، ج ٣ ص٣٢ بتصرف.

وقد يقول قائل: إن الموقف يختلف؛ فهذا مجرد موقف مساواة بالعطاء وتخلٍّ عن والٍ ظالم لفترة من الزمن بينما موقف النبي صلى الله عليه وآله وسلم موقف إثبات للإسلام والدين بأكمله، ونجيب:

أولاً: إن توزيع الثروة المالية لم يكن أمراً مستجداً على الساحة حتى يكون اجتهاداً ورأياً من الصحابة في توزيعه، وإنما حكم الله ورسوله فيه المساواة بالعطاء، فيكون تطبيق حكم المساواة وعدم المساومة فيه هو تطبيق لشرع الله وحكمه، وليس تطبيق رأي له عليه السلام في مقابل آراء الخلفاء الذين قبله.

إما أن يقبل أنصاف الحلول ويحيد عن سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويتبع سيرة الخليفة الثاني عمر وإما أن يبقى على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا ما لا يقبل الإمام عليه السلام المساومة فيه أبداً.

ثانياً: المال هو المصدر الأول لكل ما يمكن تصوره من انحرافات تقع على الأمة أو على الفرد، فطلحة والزبير والسيدة عائشة ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم لم يكونوا ليتحملوا عناء هذه المعارك وإقصاء الإمام علي عليه السلام عن حقه وهم معترفون فيما بينهم بها إلا من أجل المال والزعامة والتحكم في مصائر العباد.

من أجل المال الذي طلبه طلحة والزبير ولم يستجب لهما فيه خرجا عليه وقاتلاه، ومن أجله خرجت السيدة عائشة لعلمها أنه لن يعطيها عطاءً مالياً كما كان يغدق عليها به أبوها أبو بكر والخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ومن أجله وأجل السلطة التي بين يديه خرج عليه معاوية وقاتله، ومن أجله خانه الكثير من الولاة الذين استأمنهم الإمام علي عليه السلام

على مقدرات المسلمين، ومن أجل المال نفسه مالت أنفس كثيرة إلى الجانب المظلم معاوية بن أبي سفيان وتُرك علي بن أبي طالب الجانب المشرق للإسلام.

كما لا يمكننا أن نغفل أن نتاج توزيع ثروات الأمة المجحفة من قبل الخليفة عثمان تشكلت الطبقات، طبقة مترفة غنية تأخذ النصيب الأوفر من خزينة الدولة، بينما تأخذ الطبقة الوسطى نصيباً أقل، فيما تعيش الطبقة الفقيرة مستوىً متدنٍ من الفقر والعوز [1].

عامل المسئولية:

يتصور البعض أن مسئولية الإمام علي عليه السلام تنتهي عندما يغض نظره الشريف عن والي الشام معاوية وما يجري فيها على العباد من ظلم ونهب للثروات واعتداء على النفس المحرمة، ويكتفي بانتظار الوقت المناسب لعزله وإبداله بوالٍ آخر يثق به.

وقد أشار عليه بمثل هذا الرأي المغيرة بن شعبة فأجابه: (لا أُداهن في ديني، ولا أُعطي الدنيّة في أمري) [2].

إن المسئولية ستطال الإمام علي عليه السلام كما طالت عثمان عندما ترك مقدرات الأمة بيد ولاتها الظلمة المستبدين السارقين لثرواتها، وسيكون شريكاً في الظلم مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (من رأى منكم سُلطاناً

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: (فما جاعَ فقيرٌ إلاّ بما مُتِّعَ به غنيٌّ والله تعالى سائلهُم عن ذلك). نهج البلاغة: من كلماته القصار، الكلمة رقم ٣٢٨.

(٢) انظر الكامل في التاريخ: لابن الأثير، ج ٣ ص ١٩٧.

جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً بعهده مُخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عبادهِ بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بقولٍ ولا بفعلٍ كان حَقَّاً على الله أن يُدخله مدخله)[1].

فكيف بالإمام علي عليه السلام وهو يثبِّت والياً هو يراه من المضلين وثناً ابن وثن، لا هجرة له ولا سابقة، وهو عين الشيطان وحزبه، يقوم بالناس بالباطل[2]، فلا يغير عليه وهو الخليفة الذي يستطيع عزله !!

الإمام علي عليه السلام لو فعل ذلك لكان شريكه في الظلم ويتحمل تبعات تثبيته لولاة كمعاوية بن أبي سفيان وعبدالله بن أبي سرح وسعيد بن العاص وأضرابهم، بل يجب عليه أن يعزلهم فور تسلمه للحكم والخلافة، فيكون بذلك قد أزال هذا الظلم والعدوان عن المسلمين من جهة، ولم يتحمل تبعات أعمالهم الشيطانية من جهة أخرى.

(١) حديث رواه الإمام الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما خطب بأصحابه في طريقة إلى كربلاء، انظر كتاب: كربلاء، الثورة والمأساة: لأحمد حسين يعقوب، ص ٢٥٤.

(٢) إشارة إلى كلمات الإمام علي عليه السلام في حق معاوية.

الفصل الرابع:

سياسة الإمام علي في نظر الباحثين والدارسين

استلم الإمام علي عليه السلام الحكم والخلافة ضمن أجواء شائكة جداً، فهو يريد أن يقيم دولة إسلامية وفق ضوابط القرآن الكريم والسنة المحمدية الأصيلة، لكن التركة التي تركها الخليفة عثمان كانت كبيرة؛ فساد إداري وتجاوزات مالية وولاة يعملون بالجور والظلم ونهب الثروات وغيرها، جعل من مهمته شاقة جداً، بل يراها بعض الكُتاب والمحللين للتاريخ شبه مستحيلة.

تناول بعض الباحثين والدارسين تلك الفترة الزمنية منذ أن قتل الخليفة عثمان وحتى استشهاده صلوات الله وسلامه عليه، فانتقد بعضٌ منهم سياسته بينما بعض آخر وجد أنها السياسة المثلى لذلك الزمان ولكل زمان.

وسوف نمر بهذا الفصل على كلا الرأيين ونجيب على بعض الإشكالات المطروحة تفصيلاً، بينما نجيب على ما مررنا به سابقاً إجمالاً.

وجهات نظر إيجابية نحو سياسة الإمام:

ذهب بعض الباحثين والدارسين إلى أن السياسة التي انتهجها الإمام علي عليه السلام كانت من أفضل السياسات وأكثرها ملائمة لذلك العصر الذي عاش فيه وللعصور السابقة واللاحقة معاً.

يقول ابن أبي الحديد في شرحه للنهج[1]: هذا أمر طبيعي بالنسبة لرجلٍ كعليٍّ بن أبي طالب فقد كان (مقيداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى إتباعها، ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك).

ويقول: (.. وإن أمير المؤمنين دفع من اختلاف أصحابه، وسوء طاعتهم له، ولزومه سنن الشريعة، ومنهج العدل، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشرع في استمالة الناس إليهم بالرغبة والرهبة إلى ما لم يُدفع إليه غيره.

فلولا أنه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة، حاذقاً في ذلك، لم يجتمع عليه إلا القليل من الناس وهم أهل الآخرة خاصة، الذين لا ميل لهم إلى الدنيا، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وليهُ، واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّ والحصر، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم، فظفر في أكثر حروبه، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار، علمنا أنه من معرفة تدبير الدول والسلطان بمكانٍ مكين) [2].

---

(١) شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ١٠ ص ٢١٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ج ١٠ ص ٢٣١.

ويقول شفيق جبري في كتابه (العناصر النفسية في سياسة العرب) [1]: صحيح (أن الناس عامةً إنما همهم حطام هذه الدنيا، إلا أن الإمام علياً عليه السلام كان يعز عليه أن يعتقد أن الناس يدورون كيف دارت مصالحهم ومنافعهم، فلم يعاملهم كما يجب أن يعاملهم رجل السياسة، وإنما عاملهم كما يعاملهم رجل الأخلاق).

أما الجاحظ فقد قال في رسائله[2]: (.. فعليّ كان بالورع ملجماً عن جميع القول إلا ما هو لله فيه رضى، ولا يرى الرضى إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة، وممنوع اليد من البطش إلا ما هو لله رضى دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكرى والمكايد والآراء، فلما أبصرت العوام ـ حفظك الله ـ بوادر معاوية في المكايد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتهيأ على يده، ولم يروا مثل ذلك من علي، ظنّوا بقصور رأيهم وقلة عقولهم أن ذلك رجحان عند معاوية ونقصان عند علي، فانظروا بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعة، ثم انظر هل خدع بها إلا من عصي علياً ومال عن رأيه وخالف إذنه).

ويقول في موضع آخر[3]: فقد أكد أن علياً عليه السلام (لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة ويستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى

(١) العناصر النفسية في سياسة العرب: ص ٢٥ بتصرف.
(٢) رسائل الجاحظ السياسية: ص ٣٦٦.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٥، وشرح النهج: ج ١٠ ص ٢٢٨.

رُتبيل «صاحب الترك»، وعلي يقول: لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً. هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء كسيرته في الحاشية والحشوِ والأتباع والسَّفلة).

ويقول أبو الحسن الندوي[1] في سيرته عن الإمام علي عليه السلام : (إن سياسة علي هي اللائقة به، ولا بديل لها) ثم يستشهد بكلام العقاد: (ويقول العقاد في إنصافٍ ودقة وفي قراءة خلفيةٍ تاريخية: « واتّبع عليّ من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتّبعها، فلا نعرف سياسةً أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العافية، أو أنها كانت كافلةً باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث إليها »).

ويقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين[2]: إن السياسة لدى علي (أداة للتّغلّب على سلبيات الماضي والحاضر من أجل التوصل إلى أوضاع حياتية أفضل في المستقبل لأكبر قدر من الناس.

والسياسية، في الوقت نفسه، أداة للمحافظة على إيجابيات الماضي والحاضر أمام عواصف التغيير والتقلبات المفاجئة التي قد تحمل للمجتمع السياسي في ثناياها نذر كارثة.

السياسة إذن ليست فن التغيير فقط، إنها فن الثبات أيضاً.

---

(١) المرتضى، سيرة أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب: للندوي، ص ١٨٦.

(٢) حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام : شمس الدين، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

إن السياسي الأمين على قضية مجتمعه، يعيش في أبعاد الزمان كلها ـ ماضيه وحاضره ومستقبله ـ ويتعامل مع حقائق الماضي، وواقع الحاضر، وآمال ومخاوف ومطامح المستقبل، يقود، بحذر لا يبلغ الجمود، ومغامرة لا تبلغ التهور، مجتمعه نحو آفاق جديدة دون أن يبتر استمراريته وبعده في الماضي).

ثم يضيف الشيخ: (.. لا تستمد مقوماتها ـ أي سياسة الإمام ـ من الحفاظ على الذات وعلى مصالح الحكم وأُسرته، فلقد كانت أسرة أمير المؤمنين علي أكثر الناس حرماناً من خيرات حكمه، وكان هو عليه السلام أكثر حرماناً من أسرته.

وكانت سياسته تستضيء بنور الفكر، وتستهدي تعاليم الله، وتنفلق من قيم الأخلاق والمناقب التي تشرف الإنسان، ولذا فقد كانت سياسة الإمام إنسانية بكل ما لهذه الكلمة من محتوى.

لم تكن أبداً سياسة الأفعال وردود الأفعال، وحسابات الأرباح والخسائر للحاكم وآله وبطانته.

هذه السياسة التي تحمل روح الطيّش والغريزة، وتوجّه بعقلية مزيج من روح الغاية وروح التجارة.

وقد كان أمير المؤمنين علي في سياسته أميناً لعقيدته، أميناً لشريعته، فلا ينحرف عنها أبداً، ولا يتجاوزهما ـ كما لا يقصر عنهما ـ في أمر من الأمور أو في حالة من الحالات، أميناً لأخلاقياته القرآنية ـ النبوية، ولذا فقد جعل من العمل السياسي ممارسة رفيعة المناقب، أميناً لمجتمعه،

فيشركه في اتخاذ القرارات بعد أن يبصّره بعواقب سوء الاختيار).

ويقول عزيز السيد جاسم[1]: إن علياً كان يريد إقامة (.. سلطةٍ مثاليةٍ هي أقرب إلى « اليو توبيا » التي حلم بها فيما بعد اشتراكيّو أوربّا، الذين كانت فكرة إنقاذ الإنسانية عن طريق « الجمهورية الفاضلة » الفكرة التي نذروا أنفسهم لها، ومن ثم اشتهروا بها.

ولم تكن سلطة علي تكويناً سياسياً ناجماً عن وحي الساعة بعد اختياره خليفة للمسلمين، بل هي محصلة مؤكدة لأفكاره عن السلطة، ودورها في تجسيد مصالح المسلمين، ومجتمعات الدولة الإسلامية.

وإن تكامل رؤية علي بن أبي طالب ليس مجرد تكاملٍ نظريٍّ مُسطر في مبادئ إسلامية كان مشتهراً بها، بل هو تكامل نظري مصحوب بطرائق سياسية، وبممارسات لا تنفصل عن تصوراته في طبيعة السلطة ونوع مهماتها).

ويقول د. صبحي الصالح في تحقيقه لنهج البلاغة[2]: (كان رجل سلطةٍ وسياسة وقائداً للشرعية الإلهية في الأرض، بارعاً في قيادته، صادقاً مع ذاته، لم يكن كغيره ممّن عدل نفسه به، ـ وهو معاوية ـ في سلوكه وسيرته، والتي كان يتبجّح بها الآخرون، ويترنم بها عشاق الميكافيلية في ساحة الفكر العربي والإسلامي، ويترنح لها المستشرقون وعلماء الغرب الذين يمجدون سياسة معاوية في حكمه ويعتبرونه أنموذجاً حيّاً لواقع السياسة الحالي.

---

(١) علي بن أبي طالب سلطة الحق: لعزيز السيد جاسم، ص١٦٧.

(٢) نهج البلاغة: تحقيق د. صبحي الصالح، ص ٣١٨، الخطبة رقم ٢٠٠.

يقول عليٌ مفنداً: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر، ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس !).

وجهات نظر سلبية نحو سياسة الإمام:

استعرض بعض الباحثين والمؤرخين سياسة الإمام علي عليه السلام وانتقدوها، وذكروا بعض المؤاخذات التي أخذوها عليه، وبجولة على بعض كلماتهم وجدت أن د.يوسف العش في كتابه الدولة الأموية قد أجمل جميع تلك النقود، وكأنما كان المحرر الرسمي للدولة الأموية في البحث عن كل ما ينتقص من سياسة الإمام علي عليه السلام فأورده، لذا وجدت من الأجدى أن اقتصر على ما ذكره العش وأذكر مجمل الرد بشكل مختصر.

وقبل أن نستعرض ما قاله العش أحببت أن أنوه على أمرين:

الأمر الأول:

إن هذه السياسة لم تكن نهجاً خاصاً بالإمام علي عليه السلام وضعه للمحافظة على حكمه وخلافته وتخدم مصلحته الشخصية والمقربين من حوله، وإنما هي بالأساس نهج قرآني وطريقة محمدية في التعامل مع سياسة الدولة.

لذا فإن أي مدحٍ له أو قدحٍ فيه إنما نقدح وننتقد المنهج القرآني والسنة المحمدية في التعامل مع سياسة الدولة، فنقرر من حيث لا نشعر أنها منهاج عقيم لا يصلح لأن يكون دستوراً لمشروع دولة تقدم على الأرض، ويجب أن نقوم بتغييره بحسب ما تقتضيه مصالح الحكم والخلافة !

الأمر الثاني:

أن مجمل الباحثين والدارسين الذين تناولوا سياسة الأمـام عـلي عليه السلام بالمدح أو القدح إنما هم على قسمين:

ـ **القسم الأول**: آراء مؤلفين من الشيعة الإمامية:

وهؤلاء الباحثون أغلبهم اتفقوا على أن سياسة الإمام عـلي عليه السلام هـي السياسة المُثلى في التعامل مع الدولة، ومن يرى منهم السـلبية وهـم القلـة القليلة نجد تأثره بما يكتبه الباحثون من المـدارس الإسـلامية الأخـرى أو الاجتماعية والفلسفية المعاصرة.

الغريب في الأمر أن من يرى عدم جـدوى سياسـة الإمـام عـلي عليه السلام وهو ضمن المذهب الإمامي نجده في وقت ذاته يؤكد بشكل قاطع عـلى أن الإمام علي عليه السلام إنسان معصوم مفترض الطاعة ولا يـأتي بـأمر إلا بـما هـو حق، فلا يمارس إلا الفضيلة ولا ينهى إلا عن كـل معصـية، وهـو في ذات الوقت يرى أن بعض التحركات السياسة التي قـام بهـا لم تكـن موفقـة إلى حد ما !!

من يتصور المفهوم الأول يرى نقيضه من الإيـمان بمفهـوم العصـمة للإمام، إذ إن صدق الإمام علي عليه السلام وأمانته يحتمان عليه بكـل تأكيـد أن لا يرضى بالتجـاوزات الماليـة مـن نهـب وسرقـة وعـدم إنصـاف في توزيـع الثروات، كذا لا يمكن للصادق الأمين المعصوم أن يـترك واليـاً لـه ناهبـاً للثروات قاتلاً للنفس المحرمة يمشي بين الناس بما يُغضب الله ويسخطه.

إن طلبهم بتلون الإمام علي عليه السلام ضمن المصلحة والمكـر وكـما يفعـل

باقي الخلفاء إنما يطلب منه أن ينسلخ من عصمته التي عصمه الله بها ويكون عثماناً آخر بقميص يُسمى (علي)، ولكن يأبى عليٌّ إلا أن يكون علياً.

ـ **القسم الثاني**: آراء بعض مؤلفي المدارس الأخرى:

وهؤلاء الباحثون والدارسون كانوا متأثرين بما خرج من بلاط السلاطين، كمؤرخي البلاط الأموي والعباسي. فغير مستغرب أن سياسة الإمام علي عليه السلام لم تكن مرضية عندهم، فهي أولاً وأخيراً لا تخدم مصالحهم ومبتغياتهم[1]، وإنما تشن حرباً ذات رؤى إسلامية لا تؤهلهم لتسلم كرسي الحكم والخلافة والذي كان يعادل حياتهم.

ولذا كانت وظيفة هذا المؤرخ وذلك الناقد هو تسليط أقسى القدح في سياسة الإمام علي عليه السلام وأن لها الأثر الكبير في تدمير الأمة وتمزيقها.

يقول د. يوسف العش: (رأينا أن علياً قد مني بإخفاق في سياسته وخلافته، ففي صفين وقع في براثن عمرو بن العاص، وفي العراق اختلف مع الخوارج وحاربهم، فشلت قوته حتى صار آخر أيامه يرى بعوث معاوية تأتي إلى عقر داره، ثم يرى مصر تخرج من قبضة يده، يتبعها الحجاز

---

(١) قدم سليمان بن عبدالملك إلى مكة حاجاً سنة ٨٢ هـ زمن خلافة أبيه عبدالملك بن مروان، فطلب من أبان بن عثمان أن يكتب له سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومغازيه، فقال أبان: هي عندي، قد أخذتها مصححة ممن أثق به، فأمر سليمان عشرة من الكتّاب فنسخوها له.
فنظر فيها فإذا فيها ذكر الأنصار في بيعة العقبة الأولى والعقبة الثانية وفي بدر، فدهش لذلك. ثم نقل الخبر إلى أبيه في الشام، فقال له أبوه: ما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل، تُعرّف أهل الشام أموراً لا نريد أن يعرفوها ؟! فقال سليمان: فلذلك أمرت بتمزيق ما نسخته. انظر كتاب الموفقيات: الزبير بن بكار، ص ٢٢٢.

ثم اليمن. وفي كل ذلك إخفاق مروع فما سببه ؟)[1].

وبعد هذا الاستفهام يحاول أن ينتقل إلى محاولة معرفة العلة التي قادت الإمام علي عليه السلام إلى هذا الحال فيقول: (يكاد المؤرخون يتفقون على أن السبب هو أنه لم يكن يحسن السياسة، ويأخذون عليه مآخذ، فيرون مثلاً أنه أخطأ بعزله الولاة حين ولي الخلافة، وأخطأ خاصة بعزل معاوية، ويقولون: إن حسن السياسة كان يقتضيه أن يدعهم، ثم يتحين الفرص كما أشار عليه المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس.

ويأخذ عليه بعض المؤرخين أنه كان رجل حرب لا يرى حل الأمور إلا عن طريق الحرب، والسياسي لا يستعمل الحسام إلا بعد أن يفل الرأي وينقطع، ويأخذ عليه بعضهم الآخر أنه كان ضعيفاً مع قومه يخضع لهم ولا يسود عليهم)[2].

ويواصل كلامه السابق بعد أن يحاول أن يُعلل سبب حرص الإمام علي عليه السلام على عزل الولاة فيقول: (ظن علي أن واجبه يقضي بألا يبقى على الولاة، وهم الذين كانوا في جملة الأسباب الداعية إلى الفتنة، ونحن نعلم ما كان يقال عن عثمان وأقاربه، ومعاوية على رأسهم. فقد أطلق لهم عثمان اليد الطولى في عملهم، فقيل إنهم استغلوه. وقد بويع علي على أن يعيد الحقوق إلى أربابها، فظن أن من واجبه عزل الولاة وعزل معاوية، وإلا لم يكن راشدياً قواماً بالحق والقسط)[3].

---

(١) الدولة الأموية: للعش، ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢١.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢٢.

ثم يتساءل العش: (كان علي بهذا خليفة راشدياً بكل ما للكلمة من معنى، والموقف الوحيد الذي يبدو فيه غير راشدي هو موقفه من قتلة عثمان. فلماذا لم يعاقبهم بما أنزل الله، ولماذا تركهم يرتعون ؟ إن تبرير موقفه منهم صعب بعض الصعوبة) [1].

ويضيف إلى ما سبق قوله: (وخطأ علي أنه لم يتلون بلون ذلك الجيل، وأنه لم يفهم هذا التطور الحادث، بل كان مشبعاً بجبلته الأولى الراشدية، فالعصر فاته، وروح الزمان كانت تسير على غير ما كانت تسير عليه. وكان صعباً عليه كل الصعوبة تطويع نفسه لهذا الانقلاب الجديد، بل آثر الإخفاق في كل شيء بل الإخفاق في راشديته وعدله.

لم يكن رجل ذلك العصر، إنما كان معاوية ذلك الرجل، وهكذا أخفق علي من حيث أفلح معاوية) [2].

وبعد هذه الكلمات التي طرح فيها رأيه بسياسة الإمام علي عليه السلام يتعرض الكاتب العش إلى رأيه بعدو الإمام علي عليه السلام معاوية بن أبي سفيان وسياسته، يقول: (بإمرته ـ يعني بذلك معاوية ـ جماعات مختلفة ومذاهب متعددة وأقطار متضاربة ومصالح متنازعة، فهل أخفق معاوية حيث أخفق علي، وهو يتعرض لمشاكله نفسها، وهي تتطلب الحل، وإلا وقع تحت رزئها ؟

إننا نعلم أنه لم يخفق في حكمه وقد استمر على الخلافة عشرين عاماً، والمشاكل والعقد تحل أمامه بسهولة مع الجهد الذي تقتضية، فكيف تيسر ـ

(١) الدولة الأموية: ص ١٢٣.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٥.

له أن ينجح فيما أخفق فيه علي ؟)[1].

ثم نراه بعد ذلك يقول معللاً نجاح معاوية كما هي وجهة نظره: (إن طبع معاوية وصفاته النفسية وعقليته كانت في المستوى الذي يوفي مسائل تلك الساعة حقها، فهو رجل ذلك العصر.

كان كفؤاً بالإدارة، إذ عاناها عشرين عاماً قبل أن يصبح خليفة، فأحسنها وعرفها وعجنها. ثم كان كفؤاً بالحرب، فقد حارب الروم فغلبهم في مواقع كثيرة، وقد حارب علياً وكسب في المرحلة الأخيرة من حربه معه)[2].

ويقول أيضاً مادحاً معاوية في شرائه للذمم واستمالته الناس وإغرائهم بالأموال: (والسياسة عنده طويلة الباع، بعيدة الأغوار، تتناول كل تفصيل، وتنظر إلى كل خبر، فكأنه يود أن يطلع على كل شيء.

ونضيف إلى ما تقدم كرمه، فقد كان كريماً لا يدانى في كرمه، فالأموال تغدق من بين يديه دون حساب، وهو لا يعدها حين يعطيها، لكنه يحسن التصرف فيها، فلا يعطيها إلا إذا عادت عليه بالفائدة، ولا يتصرف فيها إلا في محلها، فهي خادمة له تؤدي أوامره وتعطيه غاياته)[3].

وأما حسنين كروم[4] فكان رأيه يوافق رأي د. العش، يقول: (إنّ

---

(١) الدولة الأموية، ص ١٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص ١٣٦.

(٣) المصدر السابق: ص ١٣٧.

(٤) الإمام علي ومشكلة نظام الحكم: محمد طي، ص ١٣١ نقلاً عن: علي بن أبي طالب وآخرون، لمحمد عمارة ص ٨٠.

علياً كان يجب أن « يشتري » من يستطيع شراءهم مستخدماً السلطة التي تحت يديه. وكان الواجب أن يستخدم المال استخداماً سياسياً وليس استخداماً دينياً، أي أن يكون رجل دولة، قضيته الأساسية الملحة هي السلطة وقهر أعدائه والاحتفاظ بها..).

إلى أن يقول: (وأثناء العمل لتثبيت السلطة الاحتفاظ بها، فإن كلَّ خطوةٍ وكلَّ عمل يجب أن يتّجه لخدمة هدفٍ واحد، وهو السلطة أولاً وقبل كل شيء).

ويمكننا أن نجمل ما قالوه بالآتي:

١. عزله لولاة الخليفة السابق عثمان بن عفان كان خطأً فادحاً، إذ إن من حسن السياسة والتدبير تركهم على منصبهم، ثم يتحين الفرص في عزلهم، كما أشار عليه المغيرة بن شعبة، وابن عباس.
٢. إن بعض الدارسين والباحثين يرون في الإمام علي عليه السلام رجل حرب وقتال، لا رجل سياسة باستطاعته تدبير أمور دولة بأكملها.
فرجل الحرب يحاول أن يقدم سيفه على رأيه، أما السياسي فإنه يحاول أن يُقلب الأمر في كل اتجاهاته، ويشاور المقربين له، حتى إذا ما عجز عن الوصول إلى حل لجأ إلى السيف.
٣. ظن الإمام علي عليه السلام أن بيعته مشروطة برد الحقوق، وعزل الولاة، ولذا كان يستميت في تحقيق ذلك ظناً منه أن ذلك واجبه تجاه الثوار ومن بايعه.
٤. كان من حسن السياسة وتدبيرها أن يتلون بلون ذلك الجيل، ويطور مفاهيمه الأولى منذ عهد النبوة، فالعصر يتطلب روحاً جديدة تسير به

نحو زمنٍ يغلب عليه طابع المادة وشراء النفوس والضمائر بالأموال والمكر والخديعة.

٥. أن يتجه نحو تثبيت حكمه والاحتفاظ به إلى خدمة هدفٍ واحد لا غير، ألا وهو السلطة أولاً وأخيراً وقبل كل شيء.

هذه الأمور الخمسة هي مجمل الكلام المأخوذ على سياسة الإمام علي، وسنحاول في هذا الفصل أن نناقشها بموضوعية وبشكل علمي:

المأخذ الأول:

عزله لولاة الخليفة السابق عثمان كان خطأً فادحاً، إذ إن من حسن السياسة والتدبير تركهم على منصبهم، ثم يتحين الفرص في عزلهم، كما أشار عليه المغيرة بن شعبة، وابن عباس.

هذا الأمر قد أجبنا عليه في الفصل السابق، ونجمله بالآتي:

١. أن ولاة الخليفة عثمان كانوا السبب الرئيسي في مطالبة الثوار للخليفة عثمان بعزلهم وتنحيتهم عن مقدرات الأمة، وذلك لظلمهم وجبروتهم وطغيانهم، فما كان للإمام علي عليه السلام إلا أن حقق تلك المطالب الشرعية التي كان ينادي بها الثوار.

٢. ترك الولاة في مناصبهم مدعاة إلى عودة الثوار للمطالبة بعزل الإمام علي عليه السلام نفسه أو قتله لو اقتضى الأمر، وكما فعلوا بالخليفة عثمان، لأنهم لا يرونه خليفة يلبي متطلباتهم، وإنما يلبي متطلبات السياسة الأموية الذين سعوا للقضاء على رأسها الخليفة عثمان.

٣. إن إبقاءه على هؤلاء الولاة الظلمة في مناصبهم مدعاة إلى الاحتجاج

على منهجه، فهم أنفسهم ـ أي الولاة ـ سوف يحتجون عليه بعدم عزله إياهم إن كانوا غير لائقين منذ البدء، فإن كانوا صالحين فلمَ يعزلهم لاحقاً، بالرغم أنهم لم يغيروا من سيرتهم منذ تسلموا مناصبهم في زمن الخلفاء السابقين.

٤. إن احتضان شعلة الثورة الإسلامية المتقدة ضرورية جداً، وذلك لإيقاظ ضمير الحكام والولاة، وأنهم لن يكونوا بعزلة عن نقم الناس وثورتهم إن استمروا في ظلمهم وغيهم وتعطيلهم لحدود الله، ولو أسكت الإمام علي عليه السلام الناس وأعطاهم المبررات التي تسوغ للولاة الظلمة البقاء على كرسيهم لمضوا في نهجهم الفاسد.

٥. إن إبقاء الولاة يعطي شرعية إسلامية لهم ولتصرفاتهم، حيث إن كثيراً من المناطق والولايات كالشام والعراق وغيرها كانت حديثة عهد بالإسلام، ويرى سكانها أن الإسلام يتمثل بما يفعله الوالي ويثيب ويعاقب عليه.

ولذا فإن ذلك الوالي الظالم المنحرف لا يمكنه أن يمثل الإسلام بما يفعله من ظلم وعدوان على الناس بولايته، ويجب أن يستبدلوا أجمع بولاة جدد لهم المؤهلات الشرعية التي يستقي منها الناس الدين الإسلامي الأصيل.

٦. الولاة الذين كانوا في سدة الحكم على مناطق الدولة الإسلامية كانوا ذوي سمعة ظالمة مستهترة بحرمات الله، لا ترعى للضعيف حقه ولا تضرب على الظالم بيد، وإنما كانت مصالحهم ومطامعهم هي المقدمة على مصلحة الإسلام، ولذا فإن من واجب الإمام علي عليه السلام أن يعزلهم فور تسلمه الحكم، لا أن يؤجل ذلك إلى وقت أخر، حتى ولو كان

ذلك الوقت والزمن قصيراً، حيث أنه سوف يشاركهم في ظلمهم للرعية، وسيكون المسئول الأول ـ وهو الخليفة ـ عن كل ظلم يقع في شرق الدولة أو غربها، بل سيحاسب أمام الله لإبقائه والياً ظالماً جائراً على العباد.

هذه إجابة إجمالية عن المأخذ الأول المطروح.

المأخذ الثاني:

اتهام الإمام علي عليه السلام بأنه رجل حرب وقتال لا قائداً سياسياً وحاكماً للدولة !!

فرجل الحرب يحاول أن يقدم سيفه على رأيه، أما السياسي فإنه يحاول أن يُقلب الأمر في كل اتجاهاته، ويشاور المقربين له، حتى إذا ما عجز عن الوصول حل لجأ إلى السيف.

هذا الاتهام لم يكن اتهاماً حديثاً من قبل الباحثين وإنما هو اتهام قديم وفي حياة الإمام علي عليه السلام نفسه، وقد أشارَ إليه الإمام في بعض خطبه، فقال في إحداها بعد أن أخرج ما بقلبه من هم سببه أعوانه والملتفين حوله من أهل الكوفة: (.. يا أشباه الرجال ولا رجال، حُلوم الأطفال، وعقول رَبَّات الحِجال، لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة جرَّت ـ والله ـ ندماً، وأعقبت صدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجَرَّعْتُموني نُغب التَّهام أنفاسا، وأفسدتم عَلَيّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له

بالحرب، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع)[1].

الإمام علي عليه السلام يجيب أن القضية ليست رجل حرب أو رجل سياسة، وإنما معدلات الانتصار والهزيمة بينه وبين معاوية لم تكن تحكمها مقدراته السياسية ومقدرات معاوية، بل كانت تحكمها ظروف أخرى، يمكن أن نطلع عليها بشكل واضح وجلي بقراءتنا لخطبة الإمام علي عليه السلام التالية: (.. أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي. استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا.

أشهود كغياب وعبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ، ترجعون إلى مجالسكم وتتخادعون عن مواعظكم. أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية كظهر الحية، عجز المقوم وأعضل المقوم.

أيها الشاهدة أبدانهم، الغائبة عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه. لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم. يا أهل الكوفة منيت بكم بثلاث واثنتين: صم ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعمي ذوو أبصار.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٧.

لا أحرار صدق عند اللقاء ولا إخوان ثقة عند البلاء. تربت أيديكم. يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر. والله لكأني بكم فيما إخال أن لو حمس الوغى وحمي الضراب وقد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها. وإني لعلى بينة من ربي، ومنهاج من نبيي. وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطا ..)[1].

لاحظ أن الإمام وضع الفارق الذي على أساسه ميز الباحثون أنه رجل حرب لا رجل سياسة وهو إخفاقه في جوانب ـ بحسب نظرتهم هم ـ، أحدها أن الأمور تخرج عن سيطرته، وهذا الأمر راجع بوجهة نظر الإمام علي عليه السلام إلى الأشخاص الذين يعتمد عليهم هو والذين يعتمد عليهم معاوية.

فقد يكون ـ وكما هو المتعارف ـ أن العامل الأساسي للنصر والإخفاق يكمن في تمثل القيادة بالقدرة والحكمة في إدارة شئون الأمة سياسياً واقتصادياً، وقد تكون القضية معكوسة في حالات أخرى، بأن تتحلى القيادة بالقوة والاقتدار والحكمة البالغة وارتفاع المعنوية والإحاطة بفنون الإدارة والسياسية والتعامل مع الأحداث، ولكن في الوقت نفسه يبتلى بأناس ـ وكما صرح هو بنفسه ـ ضعفاء لا يتحلون بالإرادة إلى جانب كبير من السذاجة وقلة التجربة مما يجعل من المتعذر على القائد مواكبة قيادتهم إلى إدراك الهدف المنشود وهو النصر على العدو، وهنا تتلاشى قدرة القائد الكفء في ظل خوف وتقاعس هؤلاء الأتباع، مما يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه.

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٧.

وهذا ما كان من أمر الإمام علي عليه السلام وأصحابه، فهو ذاك القائد الكفء المحنك سياسياً ولكنه أبتلي بأصحاب متقاعسين عن نصرته، مختلفة أهواؤهم ومبتغياتهم وتوجيهاتهم السياسية والدينية، يعصون الإمام فيما يأمرهم به، حتى أخرج ما في قلبه من ألم ما يعانيه منهم فتمنى ما عند معاوية من أصحاب يطيعونه على باطله طاعة عمياء، يقول عليه السلام: (لوددتُ والله أنّ معاويةَ صارفني بكم صرفَ الدِّينار بالدِّرهم فأخذ منِّي عشرةَ منكُم وأعطاني رجُلاً منهم)[1].

تبقى نقطة أخيرة في هذا المأخذ وهي قولهم بأنه كان لابد أن يقدم الرأي والمشورة والتدبير على السيف والقتال والحرب، فيكون القتال هو آخر ما بجعبته لمعالجة المشكلة التي يعاني منها.

وهذا الإشكال من غرائب ما سمعته مما يُطرح حول سياسته سلبياً، فمتى كان الإمام عليه السلام يبادر لاستخدام السيف على الرأي والمشورة ومحاولة تجنب القتال ؟!

فهذا بين أيدينا ينطق التاريخ بجلي المواقف التي تترجم محاولته الحثيثة على تجنب القتال واستخدام السيف، فحينما شتمه الخوارج في المسجد ولعنوه على مسمع ومرأى من أصحابه وأهل بيته نجده يعالج هذا الأمر بقول لين لا يقترب من حدة السيف من بعيد أو قريب: (لهم علينا ثلاث: أن لا نمنعهم المساجد أن يذكروا الله فيها، وأن لا نمنعهم الفيء ما دامت أيديهم في أيدينا، وأن لا نقاتلهم حتى يقاتلونا)[2].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٧.

(٢) كنزل العمال: ج ١١ ص ٢٨٧ وص ٣٠٨.

وحينما أصر طلحة والزبير والسيدة عائشة على قتاله في معركة الجمل لم يبدأ القتال، بل كان عسكر وجيش طلحة والزبير والسيدة عائشة هو من بدأ، بينما دفع الإمام علي عليه السلام بابن عباس وفي يده المصحف الشريف كي يرجعهم إلى الحق، فما كان جوابهم إلا بصيحة طلحة: ناجزوا القوم، فإنكم لا تقومون لحجج ابن أبي طالب، حتى إذا ما كانت سهام القوم تترى على الإمام وأصحابه كالمطر صاح الناس: حتى متى يا أمير المؤمنين ندلي للقوم يقتلونا رجلاً رجلاً، والله قد أعذرت إن كنت تريد الإعذار.

ولا زال الإمام علي عليه السلام يصيح بأصحابه: لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وكفكم عنهم حجة أخرى.

هذا الموقف وجميع مواقفه الأخرى مع الخوارج والغلاة وغيرهم هي نسخة واحدة تثبت لنا بما لا مجال للشك أن الإمام علي عليه السلام لم يكن يُعمل سيفه قبل أن تنقطع به جميع السبل الممكنة.

المأخذ الثالث:

اتهام بعض الباحثين أن الإمام علي عليه السلام يَظنُ أن بيعته مشروطة برد الحقوق وعزله لولاة الخليفة عثمان، ولذا كان يستميت على فعل ذلك، تلبيةً لهذه المطالب الشعبية ليس إلا.

إذا أردنا أن نعرف صدق هذا المدعى من عدمه نرجع إلى كلماته وخطبه ومقولاته التي يوضح من خلالها هدفه من رد الحقوق وعزله للولاة وغيرها من الأدوار السياسية التي قام بها.

يقول الإمام علي عليه السلام للمغيرة بن شعبة لما حاول ثنيه عن عزل معاوية

بن أبي سفيان: (لا أُداهن في ديني ولا أُعطي الدنّية في أمري) [1].

وعندما ألح عليه البعض من أصحابه في رد الحقوق والمساواة في العطاء وعزل الولاة صاح فيهم: (.. أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه، والله ما أطور به ما سمر سميرٌ، وما أمَّ نجمٌ في السماء نجماً..) [2].

لن تجد أي كلمة نطق بها الإمام علي عليه السلام يستشف ويفهم منها أن ما كان يفعله من عزل للولاة أو رده للاقطاعيات التي نهبها بنو أمية من خزانة بيت مال المسلمين، أو مساواة في العطاء أو غيرها من الأدوار السياسية، كان الهدف منها إرضاء أحد غير الله سبحانه وتعالى.

المأخذ الرابع:

إن من حسن السياسة وتدبيرها أن يتلون بلون ذلك الجيل، ويطور مفاهيمه الأولى منذ عهد النبوة، فالعصر يتطلب روحاً جديدة تسير به نحو زمنٍ يغلب عليه طابع المادة وشراء النفوس والضمائر.

لو تمعنا في هذا الإشكال نجد أن الباحث الذي يرى مثل هذا الرأي، يرى أن السياسي القدير الجدير البارز لابد من توفر ميزتين وخاصيتين فيه، هما:

١. أن يتلون بلون العصر الذي يتعايش معه، وحتى ولو غلب عليه شراء النفوس والضمائر والذمم بالأموال والحيل غير الشرعية.

---

(١) الكامل في التاريخ: ج ٢ ص ٣٠٦.

(٢) شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ٢ ص ٢٠٤.

٢. أن يطور مفاهيمه بما يساير روح العصر والمجتمع الذي يعيش فيه.

ونحن قد لا نعارض أن يطرح أي باحثٍ ما يراه نظرياً ولكن بعد أن نعرضه على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن كان موافقاً لها يسير على خُطى الإسلام وتعاليمه نرحب بها ونقيس عليها عمل الرجال، فالدين لا يُقاس بالرجال، ولكن الرجال تُقاس بالدين، وكذا أيضاً النظريات المطروحة.

إن نظرة بسيطة وسريعة على كلا الشرطين والميزتين اللتين يطالب بها منتقدو سياسة الإمام علي عليه السلام نجدها تتجه بالاتجاه المعاكس لمبادئ الإسلام وتعاليمه، بل تناقض الصدق والأمانة وتدعو إلى الكذب والنفاق وأن يبيع الإنسان دينه بدنياه فيكون بذلك هو السياسي الأمثل، وهذا ما يأباه الإمام علي عليه السلام، علماً بأنه يُصرح مراراً وفي أكثر من موقف عن معرفته بتلك الأساليب الملتوية والغادرة في جمع ما يتفرق من أصحابه بعد أن ذاقوا مر الحق، فتراه يقول حيناً: (ترون أني لا أعلم ما يُصلحكم ؟! بلى.. ولكن أكره أن أُصلحكم بفساد نفسي) [١].

ويقول في موضع آخر: (إن الوفاء توأم الصدق ولا أعلم جُنةً أوقى منه ولا يغدر من علم كيف المرجعُ، ولقد أصبحنا في زمانٍ قد أتخذَ أكثرُ أهلهِ الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حُسنِ الحيلةِ، ما لهم قاتلهم الله، قد يرى الحُوَّلُ القُلّبُ وجه الحيلةِ ودونها مانعٌ من أمرِ الله ونهيهِ فيدعُها رأيَ عينٍ بعد القدرةِ عليها وينتهزُ فُرصتها من لا حرِيجةَ لهُ في الدَّين) [٢].

---

(١) الأمالي: للشيخ المفيد، ص ٢٠٧.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٤١.

أما المقارنات الطويلة التي ساقها د. العش والتي أوضح فيها بحسب وجهة نظره تفوق معاوية على الإمام علي عليه السلام في كل الميادين السياسية فقد لخص الإجابة عنها الإمام علي عليه السلام نفسه في سطور لا تتعدى الثلاثة، فقال: (والله ما معاويةُ بأدهى منِّي، ولكنه يغدرُ ويفجرُ ولولا كراهيةُ الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن غُدرةٍ فُجرةٌ، وكل فجرةٍ كُفرةٌ، ولكل غادرٍ لواءٌ يُعرف به يوم القيامة، والله ماأستغفلُ بالمكيدة، ولا أُستغمزُ بالشديدة) [1].

المأخذ الخامس:

إن من حسن السياسة وتدبيرها أن يتجه إلى تثبيت حكمه والاحتفاظ به إلى لخدمةِ هدف واحدٍ لا غير؛ ألا وهو السلطة أولاً وأخيراً.

إن نظرة فاحصة على جميع مواقف الإمام علي عليه السلام تعطينا صورة واضحة بأن الإمام عليه السلام لم يكن ينظر إلى السلطة على أنها موطن قوة وتسلط وتحكم في عباد الله كما هو دأب الظلمة من الحكام، وإنما كانت وسيلة لإقامة الحق وتأسيس دولة أساسها العدل وتعاليمها تعاليم الإسلام فإن لم تكن كذلك فهي لا تساوي عنده شيئاً إن لم تكن قائمة على التعاليم الإسلامية.

يقول الإمام علي عليه السلام : (وإن دُنياكُم عندي لأهون من ورقةٍ في فمِ جرادةٍ تقضمُها. ما لِعَلِيٍّ ولنعيمٍ يفنَى ولذةٍ لا تبقى) [2].

---

(١) نهج البلاغة: الكلمة رقم ٢٠٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٢٤.

ودخل عبدالله بن العباس على الإمام علي في ذي قار[1] وهو يخصف نعلاً له، فقال له علي عليه السلام: ما قيمة هذا النعل ؟ فأجابه ابن عباس: لا قيمة لها. فقال الإمام عليه السلام: والله لهي أحب إليَّ من إمرتكم إلا أن قيم حقاً أو أدفع باطلاً[2].

(١) موقع بين واسط والكوفة، وهو قريب من البصرة، وكانت فيه الحرب بين العرب والفرس.
(٢) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٨٠.

الفصل الخامس:

الفوارق الموضوعية بين سياسة الإمام علي ومعاوية

عندما نستعرض آراء من يرون السلبية في سياسة الإمام علي عليه السلام نجد أنهم كثيراً ما يقارنون بينها وبين سياسة معاوية بن أبي سفيان، وكأن الحكم على سياسة الإمام عليه السلام من خلال النظر إلى سياسة معاوية ونتائجها.

لذا آثرت أن أفرد لهذا الموضوع فصلاً خاصاً به كي ننظر إلى تلك الفوارق بين السياستين، وأي منهما كان المتفوق والناجح سياسياً وأيهما كان المخفق !! [1]

وقبل أن نبدأ في تبيان الفوارق ما بين السياستين نذكر أمرين مهمين في هذا الشأن:

معيار التقييم:

وأعني به المعيار الذي على أساسه نستطيع أن نقيم أي السياسات هي الأنجح، وأيها هي الأخفق.

---

(١) انظر المقارنات التي ساقها د. العش في كتابه الدولة الأموية والتي أوردناها في الفصل السابق.

وهذه هي المشكلة في وجهة نظري التي وقع فيها أكثر الباحثين والدارسين، حيث أن لكل إنسان معيار يتبعه، ولذا قد يخطئ ذاك الباحث عندما ينظر إلى أمرٍ على أنه أمرٌ سلبيٌ، بينما يأتي آخر ويقدم الدليل على إيجابيته، والأمر واحد والتقييم اختلف، ويرجع ذلك إلى المعيار الذي يتبعه الأول غير ما اعتمده الآخر[1].

الإمام علي عليه السلام عندما لا يقبل بمبدأ المساومات في عهد حكمه وخلافته، فيعزل الولاة، ويقسم الأموال بالمساواة بين الناس، ويرفض سياسة التمييز العنصري المتبع في عهد من قبله، ويعيد صياغة معالم دولته بحسب رؤيته الإسلامية يضع أمام الجميع المعيار الذي على أساسه اتبع كل هذا، ألا وهو كتاب الله وسنة نبيه، لا شيء آخر.

يقول الجاحظ: (فعلي كان بالورع ملجماً عن جميع القول إلا ما هو لله فيه رضىً، ولا يرى الرضى إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة، وممنوع اليد من البطش إلا ما هو لله رضىً)[2].

بينما نجد أن المعيار عند معاوية هو الوصول إلى كرسي الحكم ونجاحه في المحافظة عليه، سواء أوافقت الطرق التي يسلكها أمر الله ونهيه، أم كانت تلك المسالك والطرق محاربةً لله ورسوله.

---

(١) اللص يرى أن من كمال نجاحه أن يصل إلى أموال الآخرين دون أن يشعر به أحد، بينما يراه رجل القانون أنه إنسان سيء وأن ما قام به ليس نجاحاً البتة، وإنما هو مجرم ويجب أن يعاقب. فالنجاح في هذا المعنى هو أمر نسبي بينهما، والحكم في هذا ما يقره الإسلام.

(٢) رسائل الجاحظ السياسية: ص ٣٦٦.

يقول سيد قطب [1]: (إن معاوية وزميله عمراً لم يغلبا علياً لأنهما أعرف منه بدخائل النفوس وأخبر منه بالتصرف النافع في الظرف المناسب، ولكن لأنهما طليقان في استخدام كل سلاح، وهو مقيد بأخلاقه في اختيار وسائل الصراع؛ وحين يركن معاوية وزميله إلى الكذب والغش والخديعة والنفاق والرشوة وشراء الذمم لا يملك علي أن يتدلى إلى هذا الدرك الأسفل؛ فلا عجب ينجحان ويفشل، وإنه لفشل أشرف من كل نجاح).

إذا علمنا المعيار عند الاثنين، فإننا بكل طمأنينة نقول إن الإمام علي عليه السلام كان ناجحاً أشد النجاح إن كان المعيار الذي يتبعه منهج السماء، لأنه كان إسلامياً في كل تحركاته، بينما أخفق معاوية أيما إخفاق عندما كانت الأساليب الرخيصة هي وسائله، والحكم هو غايته، والعكس إن كان ما نقيس عليه معياراً دنيوياً تكون المنفعة رأسه وأساسه.

نظرية الغاية تبرر الوسيلة:

نظريَّة تعني أنَّ الغايات إذا كانت حسنة فلا مانع من أن يكون الوصول إليها بأيَّة وسيلةٍ ممكنة وإن كانت وسيلةً لا يقرُّها شرعٌ ولا خُلُقٌ ولا دين.

ونستطيع بعد الإطلاع على تاريخ ما بعد عصر النبوة نجد إن معاوية هو أول من طبق هذه النظرية في الإسلام، فالخلفاء الثلاثة وإن تخلل حكمهم وخلافتهم بعض الانحرافات إلا أن القاعدة لا تكاد تنطبق عليهم.

---

(١) كتب وشخصيات: لسيد قطب، ص ٢٣٥ - ٢٤٣.

معاوية بن أبي سفيان كان أصدق مثال لهذه النظرية، فقد استعان بجميع الوسائل والطرق المشروعة منها وغير المشروعة للوصول إلى مبتغاه.

قتل خيار الصحابة كعمرو بن الحمق وحجر بن عدي ومحمد بن أبي حذيفة [1]، وسعد بن أبي وقاص[2]، وعبدالرحمن بن عديس البلوي[3]، ودفن بعضهم أحياءاً [4]، وأحرق دار أبي أيوب الأنصاري[5]، وغيرها من الجرائم التي ارتكبها لا لشيء إلا للوصول إلى الغاية.

---

(١) محمد بن أبي حذيفة أخذ أسيراً عندما زحف عمرو بن العاص إلى مصر وحمله إلى معاوية، فحبسه في سجن له بفلسطين، فمكث فترة غير طويلة ثم هرب، فتبعه عبيدالله بن عمرو بن ظلام في خيلٍ بحوران فقتله بالسيف.
انظر كتاب: نقد الرجال: للتفرشي، ج ٤ ص ٩٨.

(٢) هو أبو إسحاق سعد من أبي وقاص، أحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب للشورى، سمه معاوية بن أبي سفيان لما خافه على استخلاف ابنه يزيد.

(٣) عبد الرحمن بن عديس له صحبة، وشهد بيعة الرضوان، وبايع فيها وكان أمير الجيش القادمين من مصر لحصر الخليفة الثالث عثمان لما قتلوه. روى عنه جماعة من التابعين بمصر، فلما كانت الفتنة كان ابن عديس ممن أخذه معاوية في الرهن فسجنهم بفلسطين، فهربوا من السجن، فاتبعوا حتى أُدركوا، فأدرك فارس منهم ابن عديس، فقال له ابن عديس : ويحك ! اتق الله في دمي، فإني من أصحاب الشجرة ! فقال : الشجر بالخليل كثير. فقتله سنة ٣٦ هـ. انظر أسد الغابة: لابن الأثير، ج ٣ ص ٣٠٩.

(٤) دفن عبد الرحمن بن حسان حياً، وكان أحد السبعة الذين قتلوا مع حجر بن عدي، كما دفن عبدالرحمن بن أبي بكر حياً لما أبدى معارضةً على استخلاف ابنه يزيد.
مختصر تاريخ دمشق: لابن عساكر، ج ١٤ ص ٢٨٤.

(٥) أبو أيوب الأنصاري، شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان مع الإمام علي عليه السلام ومن خاصته، احرق معاوية داره، وكانت من أكثر دور الأنصار حرمة لأنها دار أحد الأنصار المقربين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكونها الدار التي بركت عندها ناقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة الهجرة وفيها أيامه الأولى.

هذا المنهج كان ينفرد به معاوية بامتياز، بعكس الإمام علي عليه السلام الذي كان الدين نصب عينه في كل خطوة يخطوها.

ويمكننا أن نستعرض الفوارق الموضوعية بين سياسية الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وخصمه معاوية بن أبي سفيان في الآتي:

الرصيد الشعبي:

معاوية بن أبي سفيان كان والياً على إقليم كبير (الشام)، وقد دخل هذا الإقليم إلى الإسلام بواسطة أخيه يزيد بن أبي سفيان، ثم خلف معاوية أخاه، فكان تفاعله مع الدين الإسلامي من خلال ولاته، إذ إنهم لم يعيشوا الفترة النبوية الشريفة، ولم يتعرفوا على رموز الصحابة الكبار، ولم تكن لهم نافذة غير نافذة يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية للتعرف على الإسلام، وبعبارة أخرى إنما تربى أهل الشام ونشأوا على دين يزيد وأخيه معاوية.

فلذا كان رصيده الشعبي كبيراً في أوساط المجتمع الشامي، بل كانوا يرون فيه الوالي الأمين على مقدرات الأمة الإسلامية الشامية من خلال ثقة الخلفاء به.

بينما في الطرف الأخر نجد أن الإمام علياً عليه السلام لا يملك أي قاعدة شعبية في ذلك الإقليم، حيث أنه كان مُبعداً عن الأجواء السياسية بالمدينة المنورة، فلم يسبق أن سمعوا به كقائد إسلامي، أو كإمام كان النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يعتمد عليه أو يفضله على من سواه من الصحابة، بل هو الخليفة الشرعي المفترض الطاعة.

لذا فإن والي الشام معاوية بن أبي سفيان عندما تحرك بشعار الطلب بدم الخليفة عثمان كان رصيده قوياً من الناحية التعبوية العسكرية الشامية لسببين:

- **السبب الأول:**

إن مراكز القيادة في الإقليم الشامي أجمع كان يمتلك زمام أمورها السلطة الأموية بقيادة معاوية بن أبي سفيان الوالي، والجميع يعلم أن المراكز القيادية هي التي تحرك الشعب كيفما تشاء.

- **السبب الثاني:**

الشعار الذي تم رفعه عالياً ـ شعار المطالبة بدم الخليفة عثمان ـ، كان له الأثر الكبير في نفوس الشاميين، فعثمان بن عفان كان هو الخليفة والأمير على ذلك المجتمع والمجتمعات الأخرى أجمع، لذا فإن قتله يلزم الجميع بالمطالبة بدمه والاقتصاص من قتلته، ولهذا كسب هذا الشعار شرعية مطلقة عند المجتمع الشامي، في المقابل كان الإمام علي عليه السلام يرفع شعار الإصلاح الذي لم يكن يتفهمه الكثير من المجتمعات التي لم يتول عليها إخطبوط كمعاوية بن أبي سفيان وأضرابه، فكيف بمجتمع عجنه وشكل سياسيته داهية كمعاوية بن أبي سفيان، فبالتأكيد أن هذا الشعار لم يكن يلقى أي إذن صاغية له.

طبيعة الحملة العسكرية:

الإمام علي عليه السلام عندما عزم على عزل ولاة الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعلى رأسهم معاوية كان خروجه بوصفه الحاكم الشرعي للخلافة الإسلامية، ولذا وجب عليه أن يقضي على الانشقاق الذي بدأه طلحة والزبير والسيدة عائشة ومن ثم سار عليه معاوية بن أبي سفيان، ونستطيع هنا أن نذكر أموراً جعلت من وضع معاوية بن أبي سفيان وضعاً ذا تماسك وتوازن وتمايز إذا ما قورن بوضع الإمام علي عليه السلام.

- **الأمر الأول:**

هذا الوضع كان مستجداً على ساحة الأمة الإسلامية، فمنذ تسلم منصب الخلافة من قبل الخليفة أبي بكر وحتى قتل الخليفة الثالث لم تنشأ حروب بين الأقاليم الإسلامية، مما سبب خروج الإمام علي عليه السلام لعزل معاوية أمورٌ منها:

أن الإمام علي عليه السلام كان يطلب من الإقليم العراقي ـ الكوفة والبصرة ـ ومن خرج معه من المدينة المنورة أن يدخلوا في حرب وقتال مع إقليم إسلامي أخر (وهو الإقليم الشامي)، لذا فإن الكثير لم يكن يمتلك الوعي الكافي لفهم أن ذلك الإقليم وذلك الوالي كان يتخذ من الإسلام شعاراً له، وإلا فإن له أطماعاً أكبر من ذلك الشعار.

ونجد هذا الأمر واضحاً أشد الوضوح عندما يعيش بعض ممن في جيش الإمام علي عليه السلام في حالة شك وريب من هذه الحرب، فهم يقاتلون أُناساً مسلمين مثلهم، يصلون إلى نفس القبلة، ويرددون نفس التكبيرة

أثناء القتال، فلِمَ القتال ؟!

يقول أسماء بن حكيم الغزاوي[1]: (كنا بصفين مع علي تحت راية عمار بن ياسر إذ أقبل رجل يستقري الصف حتى انتهى إلينا، فقال: أيكم عمار بن ياسر ؟ فقال عمار: أنا عمار. قال: إن لي إليك حاجة. قال: إني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه لا أشك في ضلالة هؤلاء القوم وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي منادياً تقدم فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، ونادى بالصلاة، ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة فصلينا صلاةً واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوةً واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه فبت بليلةٍ لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت فأتيت أمير المؤمنين فذكرت ذلك له. فقال: هل لقيت عمار بن ياسر ؟ قلت: لا. قال: فالقهُ فانظر ماذا يقول لك عمار فاتبعه، فجئتك لذلك.

فقال عمار: تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص. قاتلتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات وهذه الرابعة، فما هي بخيرهن ولا أبرّهن، بل هي شرهن وأفجرهن !!.

ثم قال له عمار: أشهدت بدراً وأحداً ويوم حنين، أو شهدها أبٌ لك فيخبرك عنها ؟ قال: لا، قال: فإن مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله ﷺ يوم بدرٍ ويوم أحد ويوم حنين، وأن مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه؟

---

(١) عمّار بن ياسر: محمد جواد الفقيه، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ بتصرف.

والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية يريد قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته ! والله لدماؤهم جميعاً أحلُّ من دم عصفور؛ أفترى دم عصفور حراماً ؟ قال: لا، بل حلالٌ. قال: فإنهم حلال كذلك، أتراني بينت لك ؟ قال: قد بينت لي، قال: فأختر أي ذلك أحببت ؟

فانصرف الرجل، فدعاه عمار ثم قال: أما إنهم سيضربونكم بأسيافهم حتى يرتاب المبطلون منكم فيقولوا، لو لم يكونوا على حق ما أظهروا علينا.

والله ما هم من الحق على ما يقذي عين ذباب والله لو ضربونا بأسيافهم حتى يبلغونا سعفات هجرٍ، لعرفت أنا على حق وهم على باطل، وأيم الله لا يكون سلماً سالماً أبداً حتى يبوء أحد الفريقين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وحتى يشهدوا على الفريق الآخر بأنهم على الحق وأن قتلاهم في الجنة وموتاهم، ولا يتصرم أيام الدنيا حتى يشهدوا بأن موتاهم وقتلاهم في الجنة، وأن موتى أعدائهم وقتلاهم في النار، وكان أحياؤهم على الباطل).

هذه الحالة خلقت مشكلة كبيرة، عندما استطاع عمرو بن العاص تحريكها لصالح معاوية، ودعا جيش الإمام علي عليه السلام إلى القرآن الكريم والتحكيم، فانقسم الجيش إلى قسمين، قسمٍ مع متابعة القتال، وهم قلة من أصحاب الإمام عليه السلام وخصوصاً من عرفوا الإمام في فترة العهد النبوي، وعلموا من هو الإمام، وقسمٍ مع التحكيم: وهم بالجانب الآخر أكثرية الجيش من الكوفة والبصرة والذين لم يكونوا على معرفة كافية بالإمام علي عليه السلام إلا من خلال طاعة الولاة وزعماء قبائلهم.

بينما نجد في الطرف المقابل جيش معاوية الذي لم يكن يعاني من هـذا الاضطراب الكبير. نعم كان لدى معاوية في جيشه من يمتلك هذا الشـك ولكن بنوع آخر وبنسبة ضئيلة جداً والتي لم تكن تشكل خطراً ذا شأن على معاوية بن أبي سفيان[1].

○ **الأمر الثاني:**

عندما يسير معاوية بن أبي سفيان بالجيش الذي معه من إقليم الشـام فإنه كان ينطلق من منطلقين:

ـ **المنطلق الأول**: أنهم يدافعون عن أنفسهم وأهاليهم وإقليمهم الذي يسير إليه الإمام علي عليه السلام لعزل واليهم الذي اعتادوا عليـه، والـذي يمثـل الشرعية بالنسبة لهم، بالإضافة إلى أنهم يـدافعون عـن أنفسـهم في مقابـل معتدٍ خارجي.

ـ **المنطلق الثاني**: إنهم بقتالهم الإمام علي عليه السلام فـإنهم يتصـورون بـأنهم يطلبون الثأر من قتلة الذين يضمهم جيش الإمام عـلي عليه السلام وكـما أخـبرهم بذلك معاوية.

أما بالجانب الآخر فإن الإمام علياً عليه السلام كان يخرج بجيش غالبيته مـن

---

(١) نستشف هذا الأمر من وجود (ذي الكلاع) القائد الكبير في جـيش الشـام، إذ إنـه كـان ملحاً على معرفة وجود عمار بن ياسر في جيش الإمام عـلي عليه السلام رغـم زعـم عمـرو بـن العاص أنه سوف يعدل لصالحهم، فلما قُتل (ذو الكلاع) قال عمرو لمعاويـة: مـا أدري بقتل أيِّهما أنا أشدُّ فرحاً، بقتل عمَّار أو بقتل ذي الكلاع !!
والسبب يكمن أن مثل هذه الحالة لو وجـدت في الجـيش فإنهـا تهلكـه وتبـدد عزيمتـه وتماسكه. انظر الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ١٨٨.

الأقاليم العراقية ـ الكوفة والبصرة ـ ويطلب منهم أن يقاتلوا أناساً مسلمين لم يلتقوا بعداوةٍ سابقة معهم، وإنما بفكرة انحراف واليهم فقط.

الإمام علي عليه السلام يطلب الهجوم من قبل أُناس لا يملكون الوعي الكافي الذي يؤهلهم لفهم خطورة تراخيهم عن قمع هذا الانحراف، إذا إنَّ الفترة التي عاشها الإمام علي عليه السلام بينهم قصيرة لا تكفي لكي يكونوا كعمار بن ياسر أو كمالك الأشتر أو غيرهم من أصحابه الذين كانوا يرون أن أوامره ما هي إلا أوامر القرآن الكريم وتطبيقاً للسنة المحمدية الشريفة.

لذا كان من السهل على المقاتل العراقي الذي يخرج مع الإمام عليه السلام أن يعيش حالة من التذمر أو سريان الشك في قلبه، لأنه وببساطة لا يرى ذلك الخطر الذي يكمن في استمرار ولاية معاوية بن أبي سفيان على الإقليم الشامي، وإنما هي طاعة للأمراء والقادة الذين أخرجوه ليس إلا.

كان واجب الإمام علي عليه السلام عزل معاوية بجيش قوامه أُناس لم يعرفهم ولم يتعرف على أكثريتهم على أقل تقدير، ولا يملك من الحجة إلا أن يقول إن معاوية بن أبي سفيان غير كفءٍ بالولاية إسلامياً ويجب عزله، فهي حجة قوية لدى من يعرفون الإمام علي عليه السلام ومعاوية حق المعرفة، لكنها ليست بالقوة ذاتها عند من لم يتعرف على الإمام علي عليه السلام ومعاوية إلا أنه كان والياً لإقليم عينه عليه الخليفة القديم ويريد الخليفة الجديد عزله لأنه لا يلتقي مع مبادئه فقط.

هذه الحالة وغيرها تعطي نتيجة غير متكافئة، فجيش معاوية بن أبي سفيان مؤمن به إيمان مطلق بالرغم ما يحمله من الباطل، وجيش الإمام علي عليه السلام لا يملك هذا الرصيد من الإيمان بالرغم من أنه يمثل الحق.

وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله: (.. أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي..) [1].

الزعامات السياسية وأثرها في الصراع:

بعد الصراع الأول الذي دار بين المهاجرين والأنصار لاستلام أهم منصب بالدولة الإسلامية إثر رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم واختصاص الجانب القرشي بهذا المنصب دون الأنصار، إذ إن الكثير من الصحابة كانت عنقه ممتدة لتسلم هذا المنصب، وخصوصاً بعد أن استلمها أكثر من خليفة ولم تكن في بادئ الأمر تعدو الإمام علياً عليه السلام.

نعم، هناك شريحة لا يُستهان بها ترى أن الخلافة هي حق للإمام علي عليه السلام، ولكن في نفس الوقت هناك شريحة أخرى ترى أنه مجرد صحابي له فضله وسابقته وجهاده وعلمه، لكنهم يرونه كأحدهم، والفارق بينهم وبينه أنه صحابي مفضل من ناحية سبقته في الجهاد وعلمه ليس إلا.

لذا كان الكثير منهم يرى أن من حقه أن يساهم في التخطيط وصنع القرارات، بل إن بعضهم كالخليفة الأول أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن عينهم عمر في الشورى السداسية يرون أنفسهم نداً للإمام عليه السلام إن لم يكن يرون الفضل لهم دونه.

والذي يجعل من هذا الأمر ملفتاً للنظر التهميش السياسي الذي ألحق

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٧.

بدور الإمام علي عليه السلام طيلة فترة الخلفاء الثلاثة والتي تصل إلى خمس وعشرين سنة، مما كان له الأثر الكبير في تضاؤلِ تلك الميزة التي كان يمتاز بها الإمام علي عليه السلام على باقي الصحابة من وجهة كثير منهم.

ونظرةٌ سريعة على الأحداث التي مرت على الإمام علي عليه السلام نجد أن من بينها دفاع الزبير بن العوام عن حقه بالخلافة والحكم، وكان يعترض على من غصبوا هذا الحق، إلا أنه عندما عُين في الشورى السداسية ـ وبعد عهدين من الخلفاء كان الإمام عليه السلام مهمش الدور ـ وجد نفسه نداً للإمام علي عليه السلام، ويرى الحق في تسلمه الحكم والخلافة بعدما كان يطلبهما للإمام.

ولكي نوضح الفكرة أكثر نذكر أموراً:

- **الأمر الأول:**

كان الكثير من الصحابة يرون أن صحبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والجهاد بين يديه ميزة اشترك فيها الجميع، ولذا فإن تفاضل بعضهم على بعض لا يعطي الحق لأحد دون الآخر في تسلم زمام القيادة السياسية.

وهذا ما كان عندما نطالع الأحداث والمناظرات التي جرت في سقيفة بني ساعدة وإصرار المهاجرين على أحقيتهم هم لوحدهم لقرابتهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بينما يرى الأنصار الأحقية لهم لجهادهم وفضلهم ودفاعهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقربهم منه.

الأمر الثاني:

بعد مضي أكثر من خمس وعشرين سنة تغيرت مفاهيم بعض الصحابة عن كون حق الإمام علي عليه السلام في تسلم الزعامة السياسية والدينية

حقاً شرعياً قلده الله ورسوله يوم غدير خم، فأصبح الكثير يراه أخاً كبيراً يكن له الاحترام والود فقط، وبالأخص أن الدور السياسي الذي أُعطي في فترة الخلفاء الثلاثة ضئيلٌ مقارنة بالأدوار التي أُسندت إلى بني أمية.

فهذا يزيد بن أبي سفيان يُسلم منصب القائد الفاتح الأعلى لبلاد الشام وما حولها في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، بينما يُقلد والٍ أموي آخر إقليماً كبيراً واسع الثروات والمساحة كإقليم البصرة والكوفة وبما يمتلكانه من مواقع مهمة في جسد الدولة الإسلامية.

كل هذا التهميش طوال هذه السنين كان لها الأثر في أفول نجم الإمام علي عليه السلام على الأقل عند بعض الصحابة ممن كانوا حوله، وهذا ما كان يحاول معاوية بن أبي سفيان أن يشير إليه عندما سُأل عن الإمام علي عليه السلام فقال: (كان عليّ في عهد رسول الله كالنجم لا يطاول)[1]، وكأنما أراد أن يقول هذا في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أما الآن فالوضع والزمان والقيمة اختلفت.

الأمر الثالث:

الشورى التي عينها الخليفة الثاني عمر قبل موته كان لها الأثر في نفوس بعض الصحابة كالزبير وسعد بن أبي وقاص وطلحة في أن يروا في أنفسهم الندية والأحقية في تسلم زمام الخلافة والقيادة السياسية من الإمام علي عليه السلام، ولذا فقد اعتزل سعد بن أبي وقاص الأمر ولم يبايع الإمام علياً عليه السلام بينما خرج عليه آخرون ـ طلحة والزبير ـ مقاتلين له بزعم المطالبة بدم عثمان، وكان السبب أبعد من ذلك بكثير.

---

(١) أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية: السيد الصدر، ص ١٥٦.

الأمر الرابع:

سلب بعض كبار الصحابة أمثال الزبير وطلحة والسيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم الميزات الاقتصادية التي منحهم إياها الخلفاء الذين قبله، مما جعل تطلعهم إلى عزله وتسلم القيادة بدلاً منه أمراً مهماً بالنسبة لهم.

وهذا واضح في موقف السيدة عائشة وطلحة والزبير، فهم كانوا يطلبون دم الخليفة عثمان بن عفان ظاهراً، وكان طمعهم بالمناصب والثروات الاقتصادية لا تخفى على من يتتبع خطواتهم وأطماعهم قبل تسلم الإمام وبعد تسلمه.

كل ما ذكرناه هو التصور العام لوضع الصحابة ممن كان لهم الأثر الكبير في تغيير مجريات الأمور السياسية، وبالطبع فإن مثل هذه الأوضاع تجعل خلافة الإمام علي عليه السلام في وضعٍ حرج لابد من الحذر منه، لأنه وبكل بساطة قد ينخدع البسطاء من عوام الناس فينقادون إلى فتنة تُطيح بالخلافة لكون من يرأسها صحابي كبير كالزبير وطلحة أو كالسيدة عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بالمقابل نجد أن إقليم الشام كان منذ أن دخل في جسد الأمة الإسلامية على يد يزيد بن أبي سفيان كان لا يملك قرارته السياسية بيده، ولم يكن بذلك الإقليم من يتطلع إلى تسلم زمام السلطة، لأنهم لم يكونوا يرون أنفسهم أكفاء، فلا هم صحابة قد صحبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا شاركوا فضل المهاجرين والأنصار.

وهذا ما منح ميزةً تضاف لإقليم الشام إذ كان وضعاً آمناً لا يعيش الاضطرابات ولم يكن فيه من يطمح إلى السلطان والحكم والخلافة، ولا من يفكر في المشاركة في إصدار القرار، وإنما غاية طموحه الانصراف إلى توفير لقمة العيش ليس إلا.

الزعامات القبلية وأثرها في الصراع:

عندما دخلت الأقاليم الحديثة بعد رحيل النبي الأعظم ﷺ كإقليم الشام والعراق ومصر وغيرها إلى الدولة الإسلامية كانت الحياة السائدة والمتبعة كحالة المدينة المنورة ومكة وباقي مدن الحجاز في فترة العهد الجاهلي من انقياد الجميع إلى رؤساء القبائل في جميع شئون حياتهم.

وحيث أن عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب هو أكثر العصور فتحاً للأقاليم وهو في ذات الوقت كان يدعو بشكل صريح ـ وكما ألمحنا سابقاً ـ إلى توزيع ثروات الأمة ومقدراتها بحسب ما يمتلكه هذا الفرد وذاك من مكانة اجتماعية فإن هذا النظام أخذ بالاتساع والتعمق أكثر، لذا فإن عامة الناس في تلك الأقاليم وخصوصاً الأقاليم التي دخلت عهد الإسلام حديثاً كانت طاعتها لرؤساء قبائلها أكثر من طاعتها للخليفة نفسه.

وكان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ملتفتاً لهذا الجانب، حيث كانت عنده لهذه الفئة مميزاتها الخاصة التي تميزها عن الطبقات الأخرى أجمع، فلها عطاؤها الخاص ولها معاملتها الخاصة التي تميزها عن سائر الناس.

يذكر حسام شحادة في كتابه (قريش وعلي) [1] إن مشكلة التحكيم ووقف القتال بمعركة صفين كانت (بضغط من الزعماء القبليين ـ وخاصة الأشعث بن قيس ـ الذين يتمتعون بنفوذ كبير لدى المقاتلين من أبناء عشائرهم على الإمام علي، وربما كان موقف الزعماء القبليين انعكاساً لتيار واسع بين أفراد المعسكر العراقي، الذي يرى ضرورة الاستجابة لمصاحف أهل الشام ووقف المقتلة والقبول بالموادعة).

ويكمل تعليقه بقوله: (ومما يدعم هذا التحليل ما رواه الدينوري من قيام الأشعث بن قيس[2] بحمل كتاب التحكيم بين الفريقين والدوران به على كل القبائل المشاركة في الجيش العراقي للتأكد من التزامها بوقف القتال) [3].

---

(١) انظر كتاب قريش وعلي: ص ٥٤٤ وما بعدها.

(٢) الأشعث بن قيس كان زعيماً على قبيلة يمينة، ارتد بعد وفاة النبي ﷺ، إلى أن قاتله زياد بن لبيد الذي كان حينها والياً على اليمن، فلجأ وجماعته إلى حصن النجير في اليمن، إلى أن استسلموا بعد حصارهم.
انظر فتوح البلدان: للبلاذري، ج ١ ص ١٢١.

(٣) ولأن مالك الأشتر النخعي من سُكان الإقليم العراقي كان ملتفتاً لهذا الأمر، فقد روي أنه قال للإمام علي: يا أمير المؤمنين، إنا قاتلنا أهل البصرة بأهل البصرة وأهل الكوفة الكوفة، ورأي الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، وتعادوا، وضعفت النية وقل العدد، وأنت تأخذهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتنصف الوضيع من الشريف، فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عمّوا به، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه. ورأوا صنائع معاوية عند أهل الغناء والشرف؛ فتاقت أنفس الناس إلى الدنيا، وقل من ليس للدنيا بصاحب. وأكثرهم يجتوي الحق ويشتري الباطل، ويؤثر الدنيا. فإن تبذل المال يا أمير المؤمنين تمل إليك أعناق الرجال، وتصف نصيحتهم لك، وتستخلص ودهم. انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد ، ج ٢ ص ١٩٧.

هذا الجانب كان ينخر المجتمع الذي كان يحكمه الإمام علي عليه السلام وبعمق[1]، وذلك لأسباب:

السبب الأول:

إن مجتمع الكوفة يتكون من مجموعة من العشائر والقبائل المتفرقة، والتي ترجع برأيها وانقيادها بالدرجة الأولى إلى رئيس القبيلة و العشيرة.

ويرجع السبب إلى أن دخول هؤلاء القبائل والعشائر إلى الإسلام كان متأخراً، وكان الولاة الذين استلموا مناصب الولاية على الكوفة والبصرة ومن حولها يرسخون هذا المفهوم، وفي الوقت نفسه يمنحون الميزات والأموال لرؤساء القبائل والعشائر، وبذلك فهم يضمنون ولاءهم جميعاً لأنهم أولاً وأخيراً مع ما يراه ويقرره زعيم القبيلة والعشيرة.

السبب الثاني:

إن زعماء القبائل ورؤساءها ومن كان لهم الكلمة الطولى تخصص لهم مميزات عمن سواهم من عامة الناس، كالعطاء الكبير الذي يستلمه من بيت مال المسلمين، أو نفاذ رأيه حين يبدي رأيه في أمر ما، أو غيره من الأمور التي كان تميزهم عمن سواهم.

الإمام علي عليه السلام عندما تسلم زمام الخلافة تعهد بإعادة النظام السياسي الإسلامي الأصيل من خلال المساواة بالعطاء وإزالة النظام الطبقي البغيض الذي قسم الأمة الإسلامية إلى طبقات تنعمت فيه طبقة الزعماء ورؤساء القبائل وذوي النفوذ من قرابة الخليفة بينما حرمت منه

---

(١) يقول الإمام علي عليه السلام: (.. ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي ..) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٧.

طبقة الفقراء والكادحين.

هذا الأمر لم يكن ليعجب زعماء ورؤساء تلك القبائل بالطبع؛ حيث اعتادوا على أن يكون عطاؤهم عطاءً كبيراً لا يشاركهم فيه إلا من كان بمنزلتهم، ويجدون أنفسهم في ظل حكومة الإمام علي عليه السلام كغيرهم من العامة لا يكاد يفرق عطاءهم عن عطاء مماليكهم وعبيدهم[1].

السبب الثالث:

القبائل العربية التي استوطنت الإقليمين الشامي والعراقي كان بينها نوع من التنافس، وكان حتى ذلك الوقت لا تجد حرجاً في الولاء والطاعة لمركز الخلافة المدينة المنورة بالرغم من أن كل الظروف من مال وثروات وسلاح ورجال قد أصبحت في غير صالح المدينة المنورة، وبفارق شاسع، إذا ما قيست بالإقليمين الشامي والعراقي.

وكلما مرت السنوات وازداد البعد الزمني عن فترة النبوة الشريفة

---

(١) يروي نصر بن مزاحم: أنه لما بويع الإمام علي عليه السلام بالخلافة كان الأشعث بن قيس وهو زعيم كبير عاملاً لعثمان بن عفان على أذربيجان، وأنه كانت بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان علاقة مصاهرة حيث كان عمرو بن عثمان قد تزوج ابنة الأشعث بن قيس قبل ذلك، وقد كتب إليه الإمام علي عليه السلام حين قدم الكوفة: (أما بعد، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله، وأن عملك ليس لك بطعمة ولكنه أمانة، وفي يديك مال الله وأنت من خزان الله عليه، حتى تسلمه إليّ، ولعلي ألاّ أكون شر ولاتك لك إن استقمت. ولا قوة إلا بالله).
ثم يتابع نصر بن مزاحم روايته فيقول: (فلما أتى منزله دعا أصحابه فقال: إن كتاب عليّ قد أوحشني. وهو آخذ بمال أذربيجان، وأنا لاحقٌ بمعاوية. فقال القوم: الموت خيرٌ لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنباً لأهل الشام ؟!).
وقعة صفين، ص ٢١ بتصرف.

كانت المشاعر الذاتية بالانتماء للإقليم تكبر أكبر مما هي عليه من قبل، لذا نجد معاوية بن أبي سفيان الداهية يخاطب بعض زعماء القبائل بجيش الإمام علي عليه السلام بصفين كالأشعث بن قيس اليماني، ويضرب على هذا الوتر الإقليمي القبلي، وأنه بالإمكان إبداء عذرك لقبيلتك، وأنك قد أديت ما عليك من خوض الحرب مع علي، ولا بأس الآن من الصلح ولن يستطيع قومك أن يعيروك بالجبن أو بالتبعية لأهل الشام بعد كل هذه المعركة الطاحنة التي خضتها حتى هذه الساعة مع علي[1].

وقد يظهر لنا جلياً هذا الأمر عندما نطلع على ما نقله ابن قتيبة [2] إذ قال: (إن معاوية دعا عتبة بن أبي سفيان، وقال له: ألِن إلى الأشعث كلاماً، فإنه إن رضي بالصلح رضيت به العامة).

بالطبع هذه الحالة تجعل الإمام علياً عليه السلام يعيش صراعاً مع هذه القبيلة وتلك، ويحاول أن يعيدهم إلى حقيقة الصراع بينه وبين معاوية، وأنه ليس صراعاً قبلياً بين إقليمين ـ الشام والعراق ـ وإنما هو صراع بين الحق والباطل.

السبب الرابع:

الخلافات بين زعماء القبائل لها أثر كبير في إحداث انقسام وانشقاق المجتمع الذي كان يحكمه الإمام علي عليه السلام.

ينقل اليعقوبي والطبري في تاريخهما [3] أنه حينما رفع الشاميون المصاحف

---

(١) منقول بتصرف من كتاب قريش وعلي: لشحادة ص ٥٤٢.

(٢) الإمامة والسياسة: ج ١ ص ١٣٧.

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٨٩، وتاريخ الطبري: ج ٤ ص ٢٤.

وتنادوا لطلب التحاكم بكتاب الله، فقال الإمام علي عليه السلام: إنها مكيدة !! وليسو بأصحاب قرآن. فاعترض عليه الأشعث بن قيس الكندي، وقد كان معاوية استماله وكتب إليه ودعاه إلى نفسه، فقال: لقد دعاء القوم إلى الحق !! فقال علي: إنهم إنما كادوكم، وأرادوا صرفكم عنهم ! فقال الأشعث: والله لئن لم تجبهم انصرفتُ عنك !.

ومالت اليمانية ـ أي قبيلته من اليمن ـ مع الأشعث، فقال الأشعث: والله لتجبينهم إلى ما دَعوا إليه أو لندفعنك إليهم برمتك !.

فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلاماً عظيماً، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم، وحتى خاف علي أن يفترق عنه أصحابه، فلما رأى الإمام علي عليه السلام ما هم فيه أجابهم إلى التحكيم.

هذا الموقف وغيره يعطينا مؤشراً عن مدى تأثير زعماء هؤلاء القبائل والعشائر على القرارات السياسية للإمام علي عليه السلام، وكيف أن أي اختلاف بينهم يسبب كارثة بالمجتمع العراقي.

السبب الخامس:

عدد القبائل المستوطنة في الأقاليم العراقية كثيرة، ومن الطبيعي أنَّه كلما زاد عدد القبائل والعشائر يزداد عدد الزعماء، فتكثر فرص الاختلاف فيما بينهم، بعكس لو كان هنالك قلة في العدد لسهل على أي قائد سياسي السيطرة عليهم.

السبب السادس:

إن هؤلاء القبائل والعشائر وزعماءها لا يملكون الوعي الكافي لفهم الأوامر الصادرة من الإمام علي عليه السلام وإنما يتعاملون معها كتعاملهم مع أي رأي من زعيم قبيلة أخرى أو قائد عسكري قابل للقبول والرد، وهذا الأمر واضح وجلي، وشواهده في التاريخ كثيرة، يكفينا ما نقلناه من أمر الأشعث بن قيس وتصديه لأمر الإمام علي عليه السلام بمتابعة القتال عندما رفع أهل الشام المصاحف.

السبب السابع:

التواجد الدائم لشبح خطر انحراف أي زعيم من زعماء القبائل والعشائر مما يتسبب في انقلاب القبيلة بأجمعها إلى جانب معاوية بن أبي سفيان، ومثاله واضح في انقلاب أكثر قبيلة اليمن لإقامة الحد على شاعر الكوفة قيس بن عمرو بن مالك عند شربه للخمر من قبل الإمام علي عليه السلام.

كل هذه الأسباب وغيرها ساعدت على تفاقم الأمر في مجتمع الإمام علي عليه السلام بعكس مجتمع الشام، حيث أن القبائل الشامية كانت على وفاق دائم مع معاوية بن أبي سفيان.

ويظهر أهمية تلك القبائل والعشائر وتأثيرها في القرار السياسي في الحرب الدائرة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان في كيفية استنهاض معاوية بن أبي سفيان لقبائل الشام [1]، فقد كان معاوية حريصاً على تقديم تبرير (شرعي) لتمرده على الإمام علي مهما بدا ذلك التبرير سطحياً أو كاذباً.

---

(١) انظر في هذا الجانب ما كتبه حسام شحادة في كتابه: قريش وعلي ص ٥٠٨ وما بعدها.

لهذا فقد بادر معاوية إلى التهيئة الشعبية الواسعة لحربه المقبلة ضد الإمام علي عليه السلام، فتشاور معاوية مع عمرو بن العاص حينما قدم جرير بن عبدالله رسول الإمام علي عليه السلام طالباً منه البيعة، فأشار عليه عمرو بأن يبذل جهده لشراء ذمة شرحبيل بن السمط الكندي[1]، وأن يتجنب في هذه المرحلة المبكرة الدعوة العلانية لأهل الشام إلى رد بيعة الإمام علي عليه السلام لأن الوقت لذلك لم يحن بعد.

وكانت نصيحة عمرو بن العاص في غاية الذكاء، فشرحبيل شيخ القبائل اليمانية في الشام والمقدم عليها، وهو يعرف أن له تأثيراً كبيراً على عامة الناس، ولابد من كسبه بأي وسيلة.

ونلاحظ هنا الفارق بين تجمع زعامة القبائل الشامية تحت راية شرحبيل وتخطيط ودهاء معاوية وعمرو بن العاص بينما كلمة قبائل العراق مشتته، بين مشككٍ وبين معارضٍ، وبين من يقاتل مع الإمام علي عليه السلام لأجل الدفاع عن إقليمه والثأر من الإقليم المنافس له وغيرها، بالإضافة إلى التناحر فيما بينهم فيما يختلفون فيه[2].

---

(١) قول عمرو لمعاوية: (ورأس الشام شرحبيل بن السمط الكندي، وهو عدو لجرير المرسل إليك فأرسل إليه ووطن له ثقاتك فليفشوا في الناس أن علياً قتل عثمان، وليكونوا أهل الرضا عند شرحبيل، فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام على ما تحب، وإن تعلقت بقلب شرحبيل لم تخرج منه بشيء أبداً).
انظر وقعة صفين: لابن مزاحم، ص ٤٤. وشرح النهج: لابن أبي الحديد: ج ٢ ص ٧١.

(٢) ما أروع ما وصف الإمام علي عليه السلام أصحابه: (يا أشباه الإبلِ غابَ عنها رُعاتُها، كُلما جُمعت من جانبٍ تفرَّقت من آخر). نهج البلاغة: الخطبة رقم ٩٧.

نظرة المجتمع الإسلامي للإمام علي عليه السلام ومعاوية:

المجتمع الإسلامي في العصر الذي عاشه الإمام علي عليه السلام لم يكن يعرفه كما نعرفه الآن وبعد أربعة عشر قرناً. ولكي تتضح الصورة بشكل أفضل نحاول أن نتدارس نظرة المجتمع الإسلامي في ذلك العصر للإمام علي عليه السلام من جهة، ونحو معاوية بن أبي سفيان من جهة أخرى.

نظرة المجتمع الإسلامي للإمام علي عليه السلام:

امتلك الإمام علي عليه السلام منزلة كبيرة في العهد النبوي[1] نتيجة جهاده في سبيل الله وقربه وتفضيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له في مختلف المواطن.

أما بعد منعطف السقيفة فقد تغيرت تلك المفاهيم التي عُرفت عنه لدى كثير من الصحابة، نجد هذا وبشكل واضح التهميش الذي مارسه

---

(١) كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخطب بالمسلمين، ثم ينادي: أين علي بن أبي طالب ؟
فيقول الإمام عليه السلام : ها أنا ذا يا رسول الله. فيضمه إلى صدره ويقبل ما بين عينيه، ومن ثم يقول بأعلى صوته: (معاشر المسلمين، هذا أخي وابن عمي وختني، هذا لحمي ودمي وشعري، هذا أبو السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة).
وعندما أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم كذباً عن أُناس من بني وليعة ارتدوا عن الإسلام فيغضب ويهددهم بقوله: (لينتهين بنو وليعة أو لأبعثن إليهم رجلاً كنفسي، يقتل مقاتلهم ويسبي ذراريهم، وهو هذا). ثم يضرب على كتف الإمام علي عليه السلام .
وقد روى الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: يا علي.. الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة).
وقد قلد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإمام وسام المنزلة بقوله: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى).
انظر ذخائر العقبى: للطبري ص ٩٢، ومجمع الزوائد: للهيثمي ج ٧ ص ١١٠، وسنن أبي داود ج ١ ص ٢٩، وغيرها من المصادر المعتبرة والتي تروي مثل هذه الأحاديث.

الخلفاء الثلاثة منذ عهد أبي بكر وحتى عهد الخليفة الثالث عثمان، فقد أُقصي من المناصب المهمة، بل لم يتولَ أياً من تلك المناصب بنو هاشم أو أحد من المقربين لهم.

كما يلاحظ أن الخليفة عمر بن الخطاب بالذات (حرص على الاستثناء الكامل لآل الرسول ﷺ وعموم بني هاشم من تقلد أي منصب في دولته على مدار سنوات حكمه الطويلة، على الرغم من قيامه بتغيير ولاته على الأمصار المختلفة.

ومما يدعم الفكرة القائلة بأن الخليفة الثاني عمر كان متقصّداً في سياسة الإقصاء تجاه بني هاشم وأسرة النبي ﷺ حقيقة أنه كانت هناك المئات من المناصب التي يمكن أن يوليها عمر لشخصيات من بني هاشم ولم يفعل، فقد كان الخليفة عمر يُغير ولاته على الأمصار بشكل متكرر، حتى بدون حصول مخالفات لسياسته أو حدوث مشكلات كبيرة تستدعي التغيير.

كان عمر يبحث دائماً عن النوعية الأقوى والأفضل من الولاة، فكان ببساطة يعزل العامل له بمجرد أن يجد رجلاً غيره ممن يتوسم فيه صفات ومؤهلات المنصب.

وبالإضافة إلى منصب الوالي، كانت هناك الكثير من المناصب الأخرى المهمة في الولايات الكثيرة في دولة عمر.

فمثلاً هناك مناصب القضاء وقيادة الجيوش والحملات العسكرية وغيرها من المناصب الإدارية والتنظيمية في الدولة الشاسعة الأطراف.

وفي ذات الوقت كان هناك الكثير من شخصيات بني هاشم وعبدالمطلب الكفؤة والشابة وخاصة من بني العباس بن عبدالمطلب. ولكن الخليفة عمر قرر أن يستبعد بني هاشم كلياً عن أي منصب له أهمية أو قيمة بين الناس.

وهذا الأمر يدعو إلى الاعتقاد بأن الخليفة عمر أراد تهميشهم وإبعادهم عن مراكز النفوذ والقرار، بشكل منهجي مدروس.

ولا يمكن الافتراض بأن الصدفة وحدها كانت السبب وراء عدم تعيين أي شخص من بني هاشم أو أن عمر كان غافلاً عن هذا الأمر. فعمر عيّن رجالاً من معظم بطون قريش وغيرها من القبائل العربية ولا يعقل أن يكون ناسياً لوجود شخصياتٍ من بني هاشم عنده في المدينة.

ويلاحظ أن الغالبية العظمى من ولاة الخليفة عمر وعمّاله كانوا من العناصر التي لم يعرف عنها أي مودةٍ لآل بيت النبي ﷺ. بل وكان جزء منهم من أبناء أشرس أعداء النبي ﷺ في مكة !

وقد أثبتت الأيام أن تلك العناصر القيادية التي اعتمد عليها الخليفة عمر في حكمه وفتوحاته لعبت الدور الأبرز والأهم في التكتل القرشي الذي شن الحرب ضد آل الرسول ﷺ ممثلين بعلي بن أبي طالب بعد بضعة أعوام.

فأهم شخصيات الائتلاف الذي خاض الصراع ضد عليّ بمراحله المختلفة، سياسياً وعسكرياً وإعلامياً، كان قد سبق لهم العمل لدى عمر في فترات معينة، ابتداءً من معاوية وابن العاص والمغيرة بن شعبة ويعلى بن

منية، مروراً بالوليد بن عقبة وحبيب بن مسلمة وبسر بن ارطاة، وانتهاءً بأبي هريرة وأبي موسى الأشعري !) [1].

إن هذا التهميش الذي مارسه الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان كانت له أهدافه، والتي يمكن أن نستنتجها من خلال الحركة التاريخية لسيرتهم، ونجملها في الآتي:

ـ الهدف الأول:

محاولة إقصاء الإمام علي عليه السلام بقدر الاستطاعة عن واجهة العمل السياسي، فيكون كباقي الصحابة الذين عايشوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحازوا على بعض الفضائل في حياته، فتبقى مناقبه وفضائله مجرد ذكرى، يتناقلها الصحابة دون أن يرتبوا عليها أي أثر يذكر.

ينقل ابن أبي الحديد عن محمد بن سليمان أنه يقول في أحد أجوبته على أسئلة جعفر بن مكي عما دار بين علي وعثمان:

إنّ علياً دحضه الأوّلان ـ يعني أبا بكر وعمر ـ وأسقطاه، وكسرا ناموسه بين الناس فصار نسياً منسياً، ومات الأكثر ممن يعرف خصائصه التي كانت في أيام النبوة وفضله، ونشأن قوم لا يعرفونه، ولا يرونه إلا رجلاً من عرض المسلمين، ولم يبق له مما يمت به إلا أنه ابن عم الرسول وزوج ابنته وأبو سبطيه، ونسي ما وراء ذلك كله [2].

وقد نجح هذا النهج أيما نجاح، حيث بقي الإمام علي عليه السلام مهمشاً

---

(١) قريش وعلي: ص ٢٩١، بتصرف.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة: ج ٩ ص ٢٨.

لا يُعطى أي دور سياسياً، بينما كان البعض من الصحابة الكبار أمثال سعد بن أبي وقاص والزبير وغيرهم ممن يرون أحقية الإمام علي بالخلافة والحكم تتلاشى شيئاً فشيئاً بعامل التغيرات التي أحدثها الخلفاء الثلاثة، فلا يرون به إلا أخاً وصحابياً جليلاً له خدماته في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يفرقه عمن سواه إلا سابقته في الإسلام وما يُروى له من فضائل خصه بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره [1].

ـ الهدف الثاني:

إقصاء بني هاشم أجمع ولم يكتف بعدم وصول الإمام علي عليه السلام للمناصب القيادية، وإنما حرم حتى أهل بيته والمقربين منه لكي لا يتمكن من الوصول إلى مبتغاه بشكل وبآخر.

ـ الهدف الثالث:

الدولة الإسلامية في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب كانت تعيش حالة من التوسع والفتوحات، فضُمت أقاليم جديدة ومهمة كإقليم الشام والعراق ومصر وغيرها، وهذه الأقاليم لها أهميتها من الناحية الجغرافية والاقتصادية.

ولم تكن تلك الأقاليم تتصل بالمدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لذا لم تكن شخصية الإمام علي عليه السلام تعني لهم شيئاً، فإذا أضفنا تجاهله سنين طوال من قبل الخلفاء الثلاثة ولم يعطَ أي منصب قيادي فإن النتيجة بكل تأكيد أنه يُعد كغيره من باقي الصحابة، لا يميزه

(١) يذكر هذا الأمر السيد محمد باقر الصدر في إحدى محاضراته الصوتية والمدونة في كتاب: أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة المحمدية، انظر ص ٢٣٥.

على غيره أحد، بل قد يفاضل بينه وبين غيره، حيث إنَّ تلك الأقاليم ستجد أن بعض الصحابة لهم الدور الفعال في المحافظة على الدولة الإسلامية وتنمية خيراتها وثرواتها كسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة بن الجراح، وعبدالرحمن بن عوف وفلان وفلان، بينما بنو هاشم وعلى رأسهم الإمام علي عليه السلام لا يوجد له رصيد يذكر، لذا لن ينشدَّوا إليهم، بل قد تكون سابقتهم في الإسلام وفضلهم وجهادهم في عداد التراث التاريخي ليس إلا، وهذا ما حدث بالفعل.

وهذا بخلاف لو أن الإمام علي عليه السلام قد مارس دوراً ولو صغيراً بأحد تلك الأقاليم، لانشدَّ إليه من حوله على أقل تقدير، ولبدأت الأحاديث تظهر شيئاً فشيئاً فتعود الدائرة مرة أخرى ومن جديد تشد بعضها بعضاً حتى تكون حلقةً قوية لها شعبيتها وجمهورها، فيعود الإمام بالمطالبة بحقه الشرعي مع قوة قد تم سلبه إياها منذ زمن طويل.

ـ الهدف الرابع:

المناصب القيادية والقضائية تحتاج إلى الانقياد الكامل إلى أوامر الخليفة نفسه، حتى وإن كان حكمه مخالفاً لأوامر الله وسنة نبيه، والخليفة عمر وصاحباه لا يحبذون شخصاً وإن كان صحابياً كعلي بن أبي طالب أو أحد بني هاشم، إذ إنه سيعترض عليهم في كثير من القرارات السياسية، أو القضائية إن لم تكن مطابقة للحكم الإسلامي الأصيل.

ونجد عمق هذا الفعل قد ظهر على أرض الواقع حينما حاولوا إبعاد الإمام علي عليه السلام من منصب الخلافة بإرغامه بأن يتبع سيرة الشيخين (أبي

بكر وعمر)[1]، وهم يعلمون مسبقاً أن شخصاً كالإمام علي لا يمكن أن ينقاد لمثل هذا التقييد، فيكون أسير أخطاء وزلات آخرين على حساب دين الله وسنة نبيه.

ـ الهدف الخامس:

تثبيت وتعيين الذين لم يكن لهم الحظ والحظوة في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمناصب القيادية والمراكز المهمة، بل أكثر من ذلك اختيار بعض من كانت لهم الأدوار المعادية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والدعوة الإسلامية كعبدالله بن أبي ربيعة ومروان بن الحكم وغيرهم، وما ذاك إلا لتغيير الصورة التي رُسمت وانطبعت في أذهان المسلمين بالمدينة المنورة ومكة المكرمة عنهم وعن خطهم، ولكي يكون عداوتهم لبني هاشم مدعاة لعدم قبولهم حصول بني هاشم على أحد تلك المناصب المهمة من جهة أخرى.

ـ الهدف السادس:

إن من ضمن ضريبة ابتعاد الإمام علي عليه السلام عن واجهة القرارات السياسية عدم إطلاعه على المستجدات بالأقاليم الأخرى، اللهم إلا الأمور العامة المتداولة بين عموم الصحابة.

لذا فإن الإمام علي عليه السلام لم يكن على إطلاع واسع بما يحدث في الأقاليم

---

(١) يذكر اليعقوبي في تاريخه: ج ١ ص ١٦٢ـ بتصرف ـ: أن عبد الرحمن بن عوف قد خلا بعلي عليه السلام فقال: لنا الله عليك إن وليت هذا الأمر (الخلافة) أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر!! فقال علي أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه.
ثم خلا بعثمان فقال له ما قال للإمام علي فالتزم، أما علي فقد التزم فقط بالعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ولم يلتزم بالعمل بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر لذلك صرفت عنه الخلافة !!

التي دخلت حديثاً بالعهد الإسلامي، إذ إنه بتلك المرحلة ـ فترة الخلفاء الثلاثة ـ كان مُقصىً بأوامر من السلطة العليا.

ويظهر جلياً هذا الأمر عندما أراد الإمام علي عليه السلام عزل ولاة الكوفة والبصرة فاستشار مالك الأشتر في ذلك، فأشار عليه بتثبيت أبو موسى الأشعري[1].

لهذا السبب كان الإمام علي عليه السلام يعتمد على قائدين عظيمين[2]، عمار بن ياسر مع من معه من صفوة المهاجرين والأنصار، وبما يحملونه من عمق إيمان بخط الإمام وسيرته، والقائد الثاني هو مالك الأشتر بما يمثله من عمق معرفة وتجربة في التعامل مع أوضاع إقليم العراقيين.

كل هذا الجانب من التهميش والإقصاء بكل أسبابه كان له الأثر الكبير على عدم إطلاع الناس على كفاءة الإمام علي عليه السلام السياسية والإسلامية بشكل عام.

وهناك جانب آخر نشيرُ إليه إجمالاً وهو أن المجتمعات والأقاليم التي دخلت في ظل خلافة الأمة الإسلامية كانت أقاليم كافرة، وبها بعض الديانات الأخرى، كالمسيحية واليهودية، وبها في ذات الوقت أعراق متعددة، وبها أُناس تعودوا على النهج القبلي والعشائري من الطاعة العمياء لرؤسائهم وزعمائهم، وهي ذات الحالة بالجزيرة العربية عموماً والحجاز

(١) يذكر ذلك الريشهري في موسوعته (الإمام علي): ج ٦ ص ٢٩٥.

(٢) يقول معاوية بعد استشهاد مالك الأشتر رضوان الله عليه: (.. كان لعليّ بن أبي طالب يدان يمينان، فقطعت إحداهما يوم صفين وهو عمار بن ياسر، وقد قطعت الأخرى اليوم وهو مالك الأشتر..). انظر شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، ج ٦ ص ٧٦.

خاصة إبان قيام النبي الأعظم ﷺ بالدعوة الإسلامية، واستطاع بقدرته الفذة على تذويب جميع تلك العادات الجاهلية، والمنكرات الكفرية إلى عادات إسلامية يرتضيها الله شرعاً له.

هذه المدة ـ ثلاث وعشرون سنة ـ لم تكن بالمدة القصيرة فقد تخللتها حروب طاحنة وأفكار راسخة جاهد النبي ﷺ لاقتلاعها من جذورها، فبدأت التعاليم الإسلامية تنساب شيئاً فشيئاً إلى قلوب وصدور من دخلوا الإسلام.

وبالطبع فإن الأقاليم التي دخلت إلى الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الثلاثة كانت أكبر بكثير من الحجاز وما جاورها، وكانت جاهلة بالدين الإسلامي، وعندما ثبت الخليفة ـ رأس الدولة الأول ـ ولاة كانوا أشبه بمن يرعى مصالحه ومصالح من بيدهم القرار، تاركاً الناس في غيهم لا يرعى فيهم إلا الأمور الظاهرية الشكلية.

دام هذا الوضع طويلاً كانوا خلاله ينظرون إلى الإسلام من خلال تصرفات ولاته وتعاليمهم، فيرون يزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ويعلى بن منية ـ هؤلاء الظلمة النفعيين ـ هم من يمثلون الإسلام، لأنهم هم ولاة الدولة من جهة أولى، ومن جهة ثانية لم يروا عليهم ملاحظات تشير إلى عدم صدقهم وأمانتهم على الدين من قبل الخليفة الحاكم نفسه.

بينما حال الإمام علي عليه السلام ـ وللأسباب التي ذكرناها ـ لم يكن معروفاً قبل خروجه إلى البصرة لقتال الناكثين لبيعته، ولا نكاد نبالغ إن قلنا إن هنالك الكثير ممن لم يسمع حتى بمجرد اسمه فضلاً على تشخيص موقفه من الحرب الدائرة بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

نظرة المجتمع الإسلامي إلى معاوية بن أبي سفيان:

الجميع يحكم على معاوية بن أبي سفيان من منظار التاريخ بعد أن قتل خيار الصحابة والتابعين، كحجر بن عدي ومالك الأشتر وسم الإمام الحسن عليه السلام، وعهده بالخلافة الإسلامية ذاك الكيان العظيم لفاسق عربيد فاجر كابنه يزيد، فبهذا ولكونه حرف وكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمور أخرى يستطيع المسلم أن يكون صورة كاملة واضحة المعالم عن شخص معاوية بن أبي سفيان، فيحكم بالتالي عليه بالفسوق وأن وجوب عزله من ولاية الشام كان واجباً لا لبس فيه.

إن هذه الصورة التي رسمناها عن معاوية من خلال ما ذكرناه هي بعد تراكم عقود من الزمن، قرأ علينا التاريخ مثالبه ومخازيه، كما قرأ علينا عدالة ونقاء إيمان الإمام علي عليه السلام فكان الحكم عليهما من خلال هذا، لكن في ذلك الزمن الذي يعيش فيه الإمام علي عليه السلام ومعاوية هل كانت الصورة واضحة جلية كما هي الآن ؟

ولكي نستطيع أن نجيب عن هذا التساؤل نذكر أموراً:

ـ الأمر الأول:

الأقاليم الشامية من سوريا وحمص وفلسطين دخلت في ظل الدولة الإسلامية على يد أخي معاوية بن أبي سفيان، وظلت تحت ولايته بعد أن ثبته عليها أبو بكر، ومن ثم بعد موته ثبت معاوية بن أبي سفيان خلفاً له. فكانت عموم القبائل الشامية تتبع أوامر السلطة الحاكمة ـ الخليفة ـ من خلال أوامر ونواهي معاوية بن أبي سفيان، فكان هو المرآة التي تعكس لهم أوامر الخليفة ونهيه.

وكانت تعاليمه تمثل التعاليم الإسلامية، إذ إنها كانت ولوقت قريب قبائل كافرة متفرقة لا تحكمها تعاليم الدين الإسلامي، وبعد انضمامها للدين الإسلامي أصبحت تتواصل وتتعرف على هذا الدين من خلاله هو.

لذا كان من السهل عليها تقبل أي فكرة يطرحها عليهم أو يصرفهم عنها، لا لقوة الحجة وهو الداهية وإنما لجهلهم بهذا الدين الجديد الذي اعتنقوه.

ـ الأمر الثاني:

الخليفة عمر بن الخطاب صاحب الشخصية القوية [1] التي يخشاها الكثير، حتى زعماء القبائل والعشائر أنفسهم، كان يولي معاوية بن أبي سفيان ثقة كبيرة، لدرجة أن خصه بمميزات ميزته عن باقي ولاته.

كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب شديد التدخل في عمل ولاته، حتى يكاد يتدخل في شؤون إدارته للولاية حتى الصغيرة منها [2]، ويكاد

---

(١) يقول شحادة في كتابه قريش وعلي، ص ٢٨٧ – ٢٨٨: (.. لقد بلغت قوة عمر بن الخطاب حداً يفوق الوصف. ويمكن بكل تأكيد القول بان قوة عمر كانت تزيد على ما تمتع به كسرى وهرقل وغيرهم من الملوك والأباطرة في أيام مجدهم ..).
ثم يضيف: (وبلغ من قوة عمر بن الخطاب أنه لم يكن يتورع وهو خليفة عن إهانة أي شخص من الرعية وإلحاق العقاب به، وحتى كبار القوم ..).
ويقول في ص ٢٨٩: (فكان عمر شخصية مخيفة. وكان المسلمون يخشونه حقاً ويهابون لقاءه، ويتقون غضبه).

(٢) يذكر شحادة في كتابه قريش وعلي، ص ٢٩٠ ـ بتصرف ـ: أن الخليفة عمر كان شديد التدخل في عمل ولائه، حتى في تفاصيل إداراتهم وطريقة شغلهم. وكان يحاسب ولاته بشدة على تصرفاتهم، فمثلاً لما بلغته أخبارُ عن ثراء عمرو بن العاص في مصر أمر محمد بن مسلمة أن يشاطره نصف أمواله، وكان عمر بن الخطاب يغير ولاته على الأقاليم باستمرار، وكان يحركهم كأحجار الشطرنج.

الباحث يستغرب من نقيض هذا العمل بالنسبة لتعامل الخليفة عمر مع معاوية بن أبي سفيان، إذ كان يقول حين ينظر إليه: هذا كسرى العرب.

وقد تلقاه معاوية ذات يوم في موكب عظيم، فلما دنا منه قال له: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: مع ما يبلغني عنك من وقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال: ما يبلغك من ذلك. قال: ولم تفعل هذا ؟ قال: نحن بأرض جواسيس العدو بها كثيرة، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما نرهبهم به. فإن أمرتني فعلت وإن نهيتني انتهيت.

فقال عمر لمعاوية: ما أسألك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب الضرس، إن كان ما قلت حقا إنه لرأي أريب، وإن كان باطلاً إنه لخدعة أديب. قال: فمرني يا أمير المؤمنين. قال لا آمرك ولا أنهاك [1].

معاوية بن أبي سفيان هو الوالي الوحيد الذي لم يحاسبه الخليفة عثمان بن عفان[2] بعد أن مهد له الخليفة الثاني عمر[3]، بل لم يطلب منه خراج

---

(١) السيف والسياسة: للورداني، ص ٧٩، نقلاً عن الاستيعاب: لابن عبد البر، ومقدمة ابن خلدون.

(٢) وقد نقل ابن الأثير في تاريخه: ج ٣ ص ٣٣ وسيرة أعلام النبلاء للذهبي ج ٣ ص ٣٤١: أن الخليفة عمر بن الخطاب استعمل وجوه الأمويين ولاة على الأقطار الإسلامية، أمثال يزيد بن أبي سفيان، وسعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، ولم يشاطر أي واحد منهم أمواله، كما شاطر بقية عماله، وكان معنياً بشئون نسائهم، فقد أقرض هند بنت عتبة أم معاوية أربعة آلاف من بيت المال تتجر فيها. وقد أعد في بيته مكاناً خاصاً فرشه بأحسن الفرش، ولم يسمح لأي أحد بالدخول فيه سوى أبي سفيان، وعوتب على ذلك، فقال: هذا شيخ قريش.

(٣) يقول طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى: ج ١ ص ١٢٠ : (.. وليس من شك في أن عثمان هو الذي مهّد لمعاوية ما أُتيح له من نقل الخلافة ذات يوم إلى آل أبي سفيان، وتثبيتها ←

ولايته، فكان يستأثر به يتصرف به كيفما يشاء.

ـ الأمر الثالث:

السيرة التي ذكرنا بعضاً منها إجمالاً تنبئ أن أي إنسان كان يعيش في تلك الفترة ولم يتعرف على الإسلام الأصيل في عصر النبوة ليجزم أن ثقة الخليفة أبي بكر والخليفة الثاني عمر بن الخطاب وانتهاءً بالخليفة الثالث عثمان بن عفان لم تأتِ من فراغ، فهم بكل تأكيد قد وجدوا في معاوية بن أبي سفيان ثقة لتبليغ وتأدية دور الوالي على أهم ولاية في الأقاليم الإسلامية، ولو كان به من الصفات الشائنة والغير سوية لما حاز على هذه الثقة من الخلفاء الثلاثة.

ـ الأمر الرابع:

أن سيرة معاوية بن أبي سفيان كانت موافقة لما اعتادت عليه القبائل والعشائر في تعاملها مع رؤسائها وأمرائها، فهو يقوم بتقديم مختلف الهبات والاقطاعيات والأموال وما شابه ذلك لزعماء القبائل، ويقوم بشراء ضعاف النفوس وأمور أخرى كثيرة، قد يجدها من عاش في عصر النبوة ومن امتلك إيماناً كإيمان أبي ذر وسلمان والمقداد أموراً خارجة عن نطاق الشرع ويجب مكافحتها والقضاء عليها، بينما لا يراها ذلك الشامي الذي اعتاد على مثل هذا النوع من التفضيل القبلي والعشائري طوال فترة حياته.

← في بني أمية، فعثمان هو الذي وسّع على معاوية في الولاية، فضمّ إليه فلسطين وحمص، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء، وجمع له قيادة الأجناد الأربعة، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين ثم مدّ له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر، وأطلق يده في أمور الشام أكثر ممّا أطلقها عمر، فلمّا كانت الفتنة فإذا هو أبعد الأمراء بالولاية عهداً وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيته).

فهو عندما دخل في الإسلام تغيرت عليه بعض الأمور العبادية والمعاملاتية فقط، لكن هذا النوع من التفضيل والتدبير السياسي الذي يعتمد عليه معاوية بن أبي سفيان لم يكن بالأمر الجديد حتى يكون مستنكراً ومستغرباً من صدوره منه.

ـ الأمر الخامس:

حرص والي الشام معاوية بن أبي سفيان على عدم وجود أحد من العناصر المؤمنة التي تنظر إليه بعين الاقتداء برسول الله ﷺ، فيقيمه على أنه ذلك اللعين الذي كان رسول الله ﷺ يأمر بقتله إن صعد المنبر[1].

مثل هؤلاء الصحابة كانوا يشكلون خطراً على شخص معاوية بن أبي سفيان، فجميع من يعيش في كنفه من الزعماء وأناس لهم مكانتهم الاجتماعية وأصحاب النفوذ والسيطرة يرون فيه ذلك الصحابي المؤتمن، الذي فضله الخلفاء الثلاثة عمن سواه لإدارة إقليم كبير ومهم كإقليم الشام.

ولهذا السبب نفسه طرد معاوية الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري[2] من

---

(١) ينقل ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ج ٥٩ ص ١٥٥ قول النبي ﷺ: (إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه).

(٢) أبو ذر الغفاري، من خيرة أصحاب النبي ﷺ والمقربين منه، وهو من السابقين للإسلام، وكان من أزهد الناس في الدنيا وأقلهم احتفالاً بمنافعها، وكان من ألصق الناس برسول الله ﷺ، حيث كان يأتمنه حين لا يأتمن أحداً من الصحابة ممن حوله، وهو أحد الثلاثة الذين بشرهم النبي ﷺ بأن الجنة تشتاق إليهم.
وقال فيه ﷺ: (ما أظلتِ الخضراءُ، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر).

الشام وأوضح سبب طرده للخليفة عثمان[1]: (إن كان لك بالشام حاجة أو بأهله؛ فابعث إلى أبي ذرّ فإنّه وغّلَ صدور الناس..) .

وهو في الحقيقة لم يوغل صدور الناس بل أوضح لهم مدى الجرم الذي كان يرتكبه معاوية في حرمات الله وحقوقه.

مع خلو الساحة الشامية من مؤدب مؤمن تقي يعرف حلال الله وحرامه حرص كل الحرص على عدم مخالطة أهل الشام بالأقاليم الأخرى.

وما يؤكد هذا المعنى ما ينقله ابن عبد ربّه في العقد الفريد[2]: قال:

لما حضرت معاوية الوفاة ـ ويزيد غائب ـ دعا الضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عُقبة المُريّ فقال: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده.

وانظر إلى أهل العراق فإن سألوك عزل عاملٍ في كلِّ يومٍ فاعزله، فإنّ عزل عاملٍ واحدٍ أهون من سل مائة ألف سيف، ولا تدري على من تكون

---

(١) عندما ضاق الخليفة عثمان بأبي ذر الغفاري ذرعاً لشدة ما كان يعارضه في باطله أرسله نفياً إلى الشام، فكان أشد ما يكون على معاوية منه على خليفته عثمان، ففضحه وبين جرائمه وما يقترفه من المحارم أمام عامة الناس، وكان يصيح بالناس: (والله !! لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله !! ما هي في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ، والله !! إني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقىً، وصالحاً مستأثراً عليه)، وأخذ ينتشر بين أهل الشام كلامه، فخافه معاوية وأيقن أن وجود أبي ذر في إقليمه قد يجر عليه الويلات، فلم يجد بداً من مراسلة الخليفة عثمان بن عفان بشأنه، والتعجيل بنفيه خارج الإقليم. انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد: ج ٣ ص ٥٥.

(٢) العقد الفريد: لابن عبد ربه الأندلسي، ج ٤ ص ٣٤١.

الدائرة، ثم أنظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشِعار دون الدِثار، فإن رابك من عدوك ريب فارمه بهم، **ثم أردد أهل الشام إلى بلدهم، ولا يقيموا في غيره فيتأدّبوا بغير أدبهم** ..).

الأتباع وأثرها في الصراع:

تعرضنا فيما سبق لهذه النقطة ولكن نشير إجمالاً، وقلنا إن الأتباع كان لهم الأثر الكبير في هذا الصراع القائم بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان. علماً بأن هذا السبب يعتبر من أعمق الأسباب التي تركت أثراً في عوامل النصر والهزيمة في ذاك الصراع.

لذا ارتأيت أن أقوم بتفصيل بعض جزئياته ليسهل علينا معرفة أي الأتباع كان الإمام علي عليه السلام يعتمد عليهم، وهم على ثمانيةِ أقسام نذكرها بشكل ـ مختصر ـ تباعاً:

- **المُخلصون من أتباعه:**

وهؤلاء من كان يعتمد عليهم في حكومته، كمالك الأشتر النخعي، وعمار بن ياسر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وأخيه عثمان، وأبي مسعود الأنصاري وخزيمة بن ثابت، وهشام بن عتبة بن أبي الوقاص، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهم ممن كانوا ثقاة الإمام علي عليه السلام وخواصه.

- **أتباعه الذين اعتزلوه:**

وهم الأصحاب الذين كانوا في بداية الأمر مع الإمام علي عليه السلام ومن ثمَّ اعتزلوا الصراع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، ومنهم جرير بن

عبدالله البجلي[1] رسول الإمام علي عليه السلام إلى معاوية في بدء خلافته، كثر قول الناس فيه واتهامه بميله إلى معاوية فاعتزل الصراع حتى توفي.

وكان منهم أبو عبدالرحمن السلمي[2] الذي اعتزل الإمام علي عليه السلام عندما لم يعطهِ من بيت مال المسلمين حين قسمه ما يأمل، وإنما جعله والآخرين في العطاء سواس.

- **أتباعه المتذبذبون:**

وكان على رأسهم عبدالله بن عبدالرحمن بن مسعود، شهد مع الإمام علي عليه السلام معركة صفين، وكان في بادئ أمره بصف معاوية، ثم خرج إلى جانب الإمام علي عليه السلام، وما لبث أن رجع بعد ذلك إلى معاوية، فسماه الإمام علي عليه السلام بالهجنع.

- **أتباعه الذين هربوا خوفاً من إقامة الحد عليهم:**

وهؤلاء كُثر، وعلى رأسهم بعض ولاته الذين انتهبوا أموال خزينة الدولة بالأقاليم، كالقعقاع بن شور، ومصقلة بن هبيرة، وغيرهم من الخائنين الذين هربوا خوفاً من الحد الشرعي عليهم.

- **أتباعه المتخاذلون المتثاقلون عن نصرته:**

وهؤلاء يعتبرون الكثرة من أصحابه وأتباعه، وكان تقاعسهم وتخاذلهم يُشغل الإمام علي عليه السلام فأكثر عليهم العتاب والخطب، وكان في

(١) انظر وقعة صفين: لابن مزاحم ص ٦٠، وسير أعلام النبلاء: ج ٢ ص ١٠٨ / ٥٣٦.
(٢) انظر شرح النهج: لابن أبي الحديد، ج ٢٠ ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.

بادئ الأمر يستحثهم على القتال حتى إذا ما ملَّ من استنهاضهم خاطبهم بأشد الخُطب التي عُهدت عن الإمام علي عليه السلام.

يقول الإمام علي عليه السلام في إحدى تلك الخطب[1]: (.. أكُلما أطلَّ عليكم منسرٌ من مناسر أهل الشام أغلقَ كُل رجُلٍ منكم بابهُ، وانجحرَ انجِحَار الضَّبَّةِ في جُحرها، والضبع في وجارها الذليلُ والله ما نصرتموهُ ومن رمي بكم فقد رُمي بأفوقَ ناصلٍ إنكم والله لكثيرٌ في الباحات قليلٌ تحت الرَّايات ..).

وقد استنفر الإمام علي عليه السلام في أحد الأيام أهل الكوفة فتثاقلوا وتباطؤوا، فعاتبهم ووبّخهم، فلمّا تبيّن منهم الخذلان، جمع أشراف أهل الكوفة ودعا شيعته الذين يثق بمناصحتهم وطاعتهم فقال فيما قال:

(.. أما إنّي قد سئمت من عتابكم وخطابكم، فبيّنوا لي ما أنتم فاعلون) إلى أن يقول عليه السلام: (.. أأجلافُ أهل الشام وأعرابها أصبر علي نصرة الضلال، وأشدّ اجتماعاً على الباطل منكم على هداكم وحقّكم؟ ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ إنّ القوم أمثالكم لا يُنشَرون إن قتلوا إلي يوم القيامة) [2].

ويقول عليه السلام في مخاطبتهم في مورد آخر[3]: (.. فإذا أمرتُكم بالسيرِ إليهم في أيَّام الحرِّ قُلتُم هذه حَمَارَّةُ القيظ أمهلنا يُسبَّخ عنَّ الحرُّ، وإذا أمرتُكُم بالسَّير إليهم في الشتاء قُلتُم هذهِ صبارَّةُ القرِّ، أمهلنا ينسلخ عنَّ البردُ، كُلّ هذا فِراراً من الحَرِّ والقُرِّ، فإذا كنتم من الحرِّ والقُرِّ تفِرُّون فإذا

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٦٩.
(٢) أنساب الأشراف: ج ٣، ص ٢٣٥.
(٣) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٢٧.

أنتم والله من السيفِ أفرُّ..).

- **أتباعه الشاكون المكذبون له:**

وهؤلاء الأتباع هم من يحملون الشك في نفوسهم وأن صراع الإمام علي عليه السلام ما هو إلا صراع قبليتين هما: قبيلة بني هاشم وقبيلة بني أمية، وحيث أن صراع القبيلتين قبل الإسلام لم يكن خافياً على أحد من القبائل، فهم بالتالي يرون أن الصراع الذي يقودهم إليه أقرب إلى صراع القبيلتين منه إلى صراع الحق في مقابل الباطل، وقد ازداد الشك ليولد شكاً آخر بشكل أكبر وأعمق، حتى أصبح بعضهم يتقول على الإمام ويُكذبه، ونجد هذا واضحاً إذا اطلعنا على أحد خطبه[1]: (.. ولقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب. قاتلكم الله فعلى من أكذب ؟ أعلى الله، فأنا أول من آمن به. أم على نبيه، فأنا أول من صدقه. كلا والله. ولكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها، ويلمه كيلا بغير ثمن لو كان له وعاء (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ).

- **أتباعه الخائنون:**

وأعني بهم أتباعه وأصحابه ممن باعوا أنفسهم إلى معاوية جواسيس على دولة الإمام علي عليه السلام، وآخرين كانت مهمتهم تأليب الناس على الإمام وعلى رأسهم الأشعث بن قيس[2].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم ٧٢.

(٢) كان رئيساً لقبيلة كندة اليمنية، فدخل الإسلام نفاقاً، ثم ارتد عن الإسلام والتحق بمسيلمة الكذاب، ولما خسر مسيلمة الحرب وحاصر المسلمون حصنه خان الأشعث قبيلته وفتح باب حصنه للمسلمين وأخذ أسيراً للخليفة أبي بكر. ←

وكان الأشعث بن قيس[1] أخطر من خان الإمام علي عليه السلام، حيث أنه شبيه عمرو بن العاص[2] يطمع بالحكم والسيادة، ولم يكن الدين والأخلاق والذمم يوماً ما تشكل له ذات أهمية إلا ما أوصله طريقها للذي يطمح له.

يقول ابن أبي الحديد: كل فساد كان في خلافة علي عليه السلام وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث[3].

ويذكر بعض الباحثين

وقد أرسل معاوية عمارة بن عقبة إلى الكوفة يتجسس على حالة جيش الإمام علي عليه السلام فكتب إليه: (خرج على عليّ أصحابه ونسّاكهم فسار إليهم فقتلهم، فقد فسد عليه جنده وأهل مصره، ووقعت بينهم العداوة وتفرقوا أشد الفرقة)[4].

شيء آخر يجدر بنا التطرق إليه وهو أن تمرّد جيش الإمام علي عليه السلام معظمه كان من القادة العسكريين الذين كانت لهم اتصالات سرية وثيقة

← عينه الخليفة الثالث عثمان والياً على إقليم أذربيجان، ولما وصل الإمام علي عليه السلام للسلطة والخلافة عزله ووضع أمواله في بيت المال، فبقي الأشعث حاقداً على الإمام ومحباً لعثمان وبني أمية، فتعاون مع معاوية سراً في حرب صفين، وكان أحد المشاركين في اغتيال الإمام علي عليه السلام.

(١) إن كل الأدلة تشير إلى ارتباط الأشعث بمعاوية وقيامه بدور الجاسوس داخل جيش الإمام علي عليه السلام. انظر سيرة الإمام علي: لنجاح الطائي، ج ٧ ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) كان ثمن انطواء عمرو بن العاص تحت لواء معاوية بن أبي سفيان أن تكون له ولاية مصر. راجع وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٣٧ وما بعدها.

(٣) شرح نهج البلاغة: ج ٢ ص ٢٧٩.

(٤) أنساب الأشراف: للبلاذري، ص ٣٨٤.

بمعاوية، وكانت هباته ومنحه تصلهم باستمرار، ولم تكن هناك رقابة في جيش الإمام عليه السلام عليهم.

- **أتباعه الطامعين بالغنائم:**

اعتادت العرب منذ عهد الجاهلية وحتى بعد دخولها العهد الإسلامي على ثقافة الغنائم وسبي النساء، ولذا كان الكثير ممن ينطوي تحت لواء هذه الحروب كان غايته الأولى ما يغنمه من هذه المعركة أو تلك.

وزاد من غرس مفهوم حب الغنيمة حينما غنم المسلمون غنائم نفيسة جراء قتالهم وفتحهم أراضي الفرس والتي عادت عليهم بكنوز لم يكونوا يحلمون بالاستيلاء عليها من قبل، وهكذا بقية الفتوحات، إذ يزداد الفرد منهم غِناءً يوماً بعد يوم في كل معركة يكسبها المسلمون.

وتفاجأ أهل الكوفة والبصرة ممن كانوا يقاتلون بجيش الإمام علي عليه السلام بواقعة الجمل ضد الناكثين أن الإمام ينهاهم عن الغنيمة وسبي النساء والأطفال وأخذ أموالهم بالبصرة.

ولما بيّن لهم الإمام علي عليه السلام العلة في ذلك وبطلان رغبتهم من الناحية الشرعية أثر هذا في نفوسهم كثيراً.

واتضح أثر ذلك في حروبه التالية (صفين والنهروان)، إذ لم يحصل أهالي الكوفة على الغنائم من جهة، ولم يجدوا التعامل القاسي الذي يدفعهم إلى إتمام المعركة مع معاوية بن أبي سفيان جعلهم يعلنون التمرد والتخاذل عن الإمام، فبدأ أكثر الجيش يفكر في العملية السلمية مع معاوية، إذ لم تكن تدر عليه الغنائم كما هي عادة الحروب، ولم يكن الإمام علي عليه السلام يجبرهم

بالسيف على متابعة القتال وكما هو حال بعض الحكام القساة [1].

هذه كله من جانب أصحاب الإمام علي عليه السلام، بينما بالجانب الآخر، أتباع معاوية بن أبي سفيان فنجدهم كما وصفهم الكثير من المؤرخين، أنه لم يُمن جيش معاوية بشيء من الفرقة والاختلاف، فقد سادت فيه روح الطاعة والانقياد التام.

يقول الحجاج بن خزيمة لمعاوية: (إنك تقوى بدون ما يقوى به عليّ؛ لأن معك قوماً لا يقولون إذا أمسكت، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت، ومع عليّ قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت) [2].

وهذا فارق موضوعي كبير، قائد يمتلك أتباعاً وأصحاباً شتى، يخونه بعضهم، ويفر منه آخرون، بينما يتركه بعضهم طمعاً لمال عدوه، ويكون حال المتبقي معه متخاذلاً يئس من مواصلة القتال تواقاً للغنيمة التي لا يمكن له الحصول عليها، وهو على ذلك لا يعاملهم معاملة الماكر، فلا يشتري النفوس، ولا يحملهم على مواصلة القتال بحد السيف، لا لشيء إلا لأن ذلك يخالف مبادئه الإسلامية التي تربى عليها.

وقائد آخر، يمتلك جيشاً لا يعصي له أمراً، أوامره مجابة ونواهيه

---

(١) يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معرفته أن طريق السيف هو ما يصلح تخاذلهم: (ولقد علمت أنّ الذي يُصلحكم هو السَّيف، وما كنت متحرِّياً صلاحكم بفساد نفسي، ولكن سيُسلَّط عليكم من بعدى سلطانٌ صعبٌ).
مصباح البلاغة ـ مستدرك نهج البلاغة ـ: للميرجهاني، ج ١ ص ٣١١.
وقيل للإمام علي عليه السلام: إن أهل العراق لا يُصلحهم إلا السيف !! فقال: (إن لم يصلحهم إلاّ فسادي فلا أصلحهم الله). انظر الإرشاد: للشيخ المفيد، ج ١ ص ٢٨١.

(٢) موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي: للقرشي، ج ١١ ص ٢١٥ - ٢١٦.

متروكه، وهو على ذلك يستخدم أساليب ملتوية، فيشتري الضمائر ويقتل ويُجند الجواسيس، ويفعل كل عمل يقربه إلى كرسي حكمه. فارق كبيرٌ بين موقف الاثنين !!

السأم والملل والنفور من الحرب:

كل إنسان في هذا الوجود ينفر ويسأل ويملل من الحروب إن بُلي بها، لأنها تسبب الدمار وخراباً للبيوت وإزهاق للأنفس، وما تخلفه من أرامل وأيتام.

الفتوحات الإسلامية التي جاءت بعد إنشاء هذه العاصمة الكبيرة (الكوفة)[1] كانت تعتمد عليها بشكل مباشر وشبه كُلي، فجيشها يعتبر المُحرك الأساس لها، ويعتبر هو القلب والمقدمة والمؤخرة للجيش الإسلامي في عملية الفتوحات أو درء الغزو الخارجي وصده.

---

(١) عندما توغل المسلمون العرب في فتوحاتهم إلى مناطق واسعة خارج صحرائهم أبعدتهم عن عاصمة الخلافة الإسلامية المدينة المنورة؛ ولذا بات الجيش في حاجة إلى مركز إمداد ثابت وقاعدة حربية تنطلق منها جيوش الفتح، والهدف من هذه القاعدة حماية البلاد المفتوحة، وكذلك إمداد أهل المدن بالجيوش اللازمة لحمايتها. كذا عندما تغيرت صحة الجند تبعًا لتنقلهم بين مختلف المناطق التي لم يألفوا تضاريسها ومناخها، فتغيرت ألوانهم وذبلت أجسامهم؛ لذا رأى العرب أن تكون قواعد جيوشهم في مناطق صحراوية تتناسب وطبيعة ما ألفته أجسامهم من جفاف وحرارة وغيرها، ولذا تم إنشاء مدينة الكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب لتكون محطة للجُند ومنطلقاً للفتوحات الإسلامية، لذا فإن غالبية القبائل التي سكنت الكوفة كانت من أعراق وأقطار مختلفة، والتي بلغت بحسب بعض الإحصائيات من قبل بعض المؤرخين إلى ثلاثمائة وستين قبيلة، وأربعمائة راية تُرفع في الحروب.

حتى إذا ما جاءت الفترة التي استلم فيها الإمام علي عليه السلام الخلافة والحكم فكان جيش الكوفة هو الذي تحمل الثقل الأكبر في عملية حروبه الثلاث: الجمل وصفين والنهروان.

ففي معركة الجمل بلغ إجمالي عدد القتلى بلغَ خمسة وعشرين ألف قتيل، خمسة آلاف من أصحاب الإمام علي عليه السلام، وعشرون ألف قتيل من أصحاب جيش طلحة والزبير، عدا ما أُحصي من عدد المصابين بقطع الأرجل والأيدي والإصابات الأخرى، والتي بلغ عددها أربعة عشر ألف مُصاب[1].

وفي معركة صفين قُتل سبعون ألفاً، خمسة وعشرون ألفاً من أصحاب الإمام علي عليه السلام، وخمسة وأربعون ألفاً من أصحاب معاوية[2]، وأما معركة النهروان فقد قُتل فيها قرابة أربعة آلاف[3].

قد يقول قائل إن اعتماد الإمام علي عليه السلام في القتال على الإقليم العراقي أجمع، من الكوفة والبصرة، لا الكوفة بالذات.

ونقول: نعم البصرة وحدها قادرة على أن تجند أكثر من ستين ألف مقاتل على أقل تقدير، لكن القتلى من كلا المدينتين ـ الكوفة والبصرة ـ هما

---

(١) هنالك اختلاف بسيط في إحصائية عدد القتلى عند المؤرخين، فبعضهم ذكر أن عدد القتلى الإجمالي ثلاثون ألف، وذكر بعض آخر أقل من خمسة وعشرين ألف.
انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٠، والجمل: للمفيد ص ٤١٩.

(٢) مروج الذهب: ج ٢ ص ٣٩٣ - ٣٩٤، وعلي والخوارج: للعاملي ج ١ ص ٥٢.

(٣) أيضاً هنالك اختلاف في إحصائيات القتلى، لكن اعتمدنا المشهور لدى المؤرخين.
انظر علي والخوارج، للعاملي ج ١ ص ١٩٥ وما بعدها.

قتلى من جانب عسكر الإمام علي عليه السلام، فلا فارق بين قتلاها، فكلاهما العضد التي كان يعتمد عليها الإمام علي عليه السلام في حربه ضد معاوية.

هذا العدد المهول من القتلى والجرحى والذي شارف على ثمانية وستين ألف قتيل وجريح في حروبٍ ثلاث فقط، فكيف بنا لو عدنا إلى الوراء وأتممنا عد وإحصاء ما قُتل منهم أيام الفتوحات الإسلامية مروراً بقتلى هذه الحروب لوجدنا عدداً مهولاً يُصيب الباحث بالذهول والاستغراب من تحمل مدينتين لهذا العدد من القتلى والجرحى.

بالتأكيد أن هذا الأمر يُعد من أهم الأسباب التي بثت في أهالي الكوفة والبصرة السأم والملل من الحروب. يقول الإمام علي عليه السلام: (أيها الناسُ إنهُ لم يزل أمري معكم على ما أحبُّ حتى نهكتكمُ الحربُ..) [1].

ويذكر الطبري وابن الصباغ: أن الإمام علياً عليه السلام لما رجع من معركة صفين مرّ ببيوت الثوريين فسمع البكاء على قتلاهم في تلك الحرب، ثم مرَّ بغيرهم؛ فكذلك، فلما وصل إلى الشباميين سمع مثل ذلك أيضاً، وأخبروه: أنه قد قُتل من الشباميين مائة وثمانون، فليس من دار إلا وفيها بكاء[2].

بالطبع هذا العدد الكبير من القتلى يورث الكثير من السلبيات على مختلف الصعد، السياسية منها والمادية والاجتماعية، من كثرة الأيتام والأرامل، وتلاشي بعض البيوتات التي قُتل أهلها، كما تُسبب حالة من الكره والسأم والملل من الحروب، وما ينتج منها من الدمار.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة رقم ٢٠٨.

(٢) انظر تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٤٥، والفصول المهمة: ص ٨٣.

هذه الحالة من السأم والملل والنفور من الحروب أصابت جيش الكوفة وبيوتاتها بشكل رهيب، حتى أصبح الحل بيد أكثريتها يعتمد على أمرين:

ـ **الأمر الأول**: أن يعتزلوا الحرب، ويرجعوا إلى سالف معيشتهم، فلا يدخلوا في هذا الأمر، لا إيجاباً ولا سلباً، وهذه الفئة كانت الغالبية العظمى من جيش الإمام علي عليه السلام، وهذا ما جعل الإمام يُكثر معاتبتهم وتأنيبهم على هذا الركون إلى الخذلان وعدم مناصرتهم له.

ـ **الأمر الثاني**: أن يلجوا إلى الطرف الآخر (معاوية بن أبي سفيان) الذي كان يرمي بشبكة صيده لكل من أصابه الملل والسأم من هذه الحرب، أو طامع للأموال.

بينما في الجانب الأخر نجد أن العدد الذي قُتل مع معاوية بن أبي سفيان بصفين عدد كبير لا شك في ذلك، لكن يتبقى أن هذا العدد قُتل في معركة واحدة، وأن هذا الجيش لم يُعانِ من الإنهاك والملل، ولم يُبتَلَ بمعارك سابقة كثيرة، بل أقصى ما أصاب هذا الجيش هو الحزن على قتلاه، متمسكاً للثأر من عدوه. ونستطيع أن نعرف مدى استعداد جيش الشام للحرب واستعدادهم له بالرغم من عدد قتلاهم الكبير، حين أراد الإمام علي عليه السلام استئناف الحرب مع معاوية قبيل اندلاع فتنة الخوارج خرج جيش الشام بأجمعه لملاقاة الإمام علي عليه السلام وعسكروا على مشارف صفين منتظرين وصول جيش الإمام، بينما جيش الإمام أخذ بالتسلل والهروب من المواجهة شيئاً فشيئاً إلى الكوفة، ولم يتبق معه إلا رجال من خاصته.

مصادر البحث

١. **القرآن الكريم**.
٢. **الأخبار الطوال**: أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري.
٣. **الأخبار الموفقيات**: الزبير بن بكار.
٤. **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد**: أبي عبدالله محمد بن النعمان البغدادي، المعروف بالمفيد.
٥. **أزمة الخلافة والإمامة و آثارها المعاصرة**: أسعد وحيد.
٦. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: أبو عمر يوسف أحمد عبدالبر النمري الأندلسي.
٧. **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: الشيخ عز الدين أبي الحسن الشيباني، المعروف بابن الأثير.
٨. **الإسلام والمشكلة العنصرية**: عبدالحميد العبادي.
٩. **الأصول من الكافي**: أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني.
١٠. **الأعلام من الصحابة والتابعين**: الشيخ حسين الشاكري.
١١. **اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم**: أبو العباس أحمد بن تيمية الحراني.

١٢. **الأمالي**: الشيخ أبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، المعروف بالمفيد.
١٣. **الإمام علي عليه السلام والخوارج**: السيد جعفر مرتضى العاملي.
١٤. **الإمام علي ومشكلة نظام الحكم**: محمد طي.
١٥. **الإمام علي، سيرة وتاريخ**: من إصدارات مركز الرسالة.
١٦. **الإمامة والسياسة**: عبدالله ابن قتيبة الدينوري.
١٧. **الإمامة وأهل البيت**: د. محمد بيومي مهران.
١٨. **أنساب الأشراف**: المؤرخ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.
١٩. **الأنساب**: الإمام أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني.
٢٠. **أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية**: محاضرات السيد محمد باقر الصدر.
٢١. **بحار الأنوار**: العلامة محمد باقر المجلسي.
٢٢. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**: الإمام القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي الأندلسي.
٢٣. **البداية والنهاية**: للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي.
٢٤. **تاريخ أبي الفداء، المختصر في أخبار البشر**: الملك المؤيد إسماعيل أبو الفداء.
٢٥. **تاريخ الإسلام**: الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد عثمان الذهبي.
٢٦. **تاريخ الأمم والملوك**: محمد بن جرير الطبري.

٢٧. **تاريخ الكوفة**: السيد حسين البراقي.
٢٨. **تاريخ اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر المعروف باليعقوبي.
٢٩. **تاريخ مدينة دمشق**: الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي، المعروف بابن عساكر.
٣٠. **الجمل**: الشيخ أبي عبدالله بن محمد النعمان، الملقب بالمفيد.
٣١. **حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام**: الشيخ محمد مهدي شمس الدين.
٣٢. **الخرائج والجرائح**: الفقية قطب الدين الراوندي.
٣٣. **الدولة الأموية**: يوسف العش.
٣٤. **ديوان صفي الدين الحلي**: صفي الدين الحلي.
٣٥. **ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى**: الحافظ محب الدين الطبري.
٣٦. **رجال تركوا بصمات على قسمات التاريخ**: السيد لطيف القزويني.
٣٧. **رسائل الجاحظ السياسية**: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
٣٨. **سنن أبي داود**: الحافظ ابي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.
٣٩. **السنن الكبرى**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي.
٤٠. **سنن النسائي**: الإمام الحافظ أبو عبدالرحمن أحمد شعيب النسائي.
٤١. **سير أعلام النبلاء**: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي.
٤٢. **سيرة الإمام علي بن ابي طالب**: نجاح الطائي.
٤٣. **السيف والسياسة في الإسلام، الصراع بين الإسلام النبوي والإسلام الأموي**: صالح الورداني.
٤٤. **شرح نهج البلاغة**: ابن أبي الحديد المعتزلي.
٤٥. **صحيح البخاري**: الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري.

٤٦. **الطبقات الكبرى**: محمد بن سعد.
٤٧. **عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى**: السيد مرتضى العسكري.
٤٨. **العقد الفريد**: ابن عبد ربه الأندلسي.
٤٩. **علي بن أبي طالب سلطة الحق**: عزيز السيد جاسم.
٥٠. **علي بن أبي طالب وآخرون**: محمد عمارة.
٥١. **عمار بن ياسر**: محمد جواد الفقيه.
٥٢. **العناصر النفسية في سياسة العرب**: شفيق جبري.
٥٣. **عيون الأخبار**: ابن قتيبة الدينوري.
٥٤. **الغارات**: أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي.
٥٥. **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**: الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني.
٥٦. **فتح الباري في شرح صحيح البخاري**: الإمام الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني.
٥٧. **الفتنة الكبرى**: طه حسين.
٥٨. **فتوح البلدان**: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.
٥٩. **الفتوح في التاريخ**: أبو محمد أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي.
٦٠. **الفصول المهمة في معرفة الأئمة**: الشيخ الإمام علي بن محمد أحمد المالكي المكي.
٦١. **الفوائد الرجالية، رجال السيد بحر العلوم**: السيد محمد المهدي بحر العلوم الطباطبائي.
٦٢. **قريش وعلي**: حسام شحادة.
٦٣. **الكامل في التاريخ**: عز الدين أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري.

٦٤. **الكامل في التاريخ**: عز الدين بن محمد ابن الأثير الجزري.
٦٥. **كتب وشخصيات**: سيد قطب.
٦٦. **الكذب والسرقة**: أيوب شحيحي.
٦٧. **كربلاء، الثورة والمأساة**: أحمد حسين يعقوب.
٦٨. **كنزل العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي.
٦٩. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي.
٧٠. **مجمع النورين وملتقى البحرين**: الشيخ أبو الحسن المرندي.
٧١. **المحلى**: ابي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم.
٧٢. **المرتضى، سيرة سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب**: أبو الحسن علي الحسني الندوي.
٧٣. **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: أبو الحسن المسعودي.
٧٤. **مستدرك نهج البلاغة، مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة**: حسن الميرجهاني الطباطبائي.
٧٥. **المصنف**: الحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعائي.
٧٦. **معالم المدرستين**: السيد مرتضى العسكري.
٧٧. **معجم البلدان**: الشيخ شهاب الدين ياقوت الحموي البغدادي.
٧٨. **المعجم الكبير**: الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.
٧٩. **معرفة السنن والآثار**: أحمد بن الحسين النيسابوري البيهقي.
٨٠. **مناقب آل أبي طالب**: الإمام مشير الدين أبي عبدالله محمد بن شهرآشوب المازندراني.

٨١. **المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين**: محمد بن جرير الطبري.
٨٢. **موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام**: الشيخ باقر شريف القرشي.
٨٣. **موسوعة الإمام علي في الكتاب والسنة والتاريخ**: محمد الريشهري.
٨٤. **موسوعة المصطفى والعترة**: الحاج حسين الشاكري.
٨٥. **موطأ مالك**: أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني.
٨٦. **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**: أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان.
٨٧. **النص والاجتهاد**: الإمام عبدالحسين شرف الدين الموسوي.
٨٨. **نقد الرجال**: السيد مصطفى بن الحسين الحسيني التفرشي.
٨٩. **نهج البلاغة**: من كلام وخطب وكُتب الإمام علي عليه السلام، جمع وتنسيق العلامة الشريف الرضي.
٩٠. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: ابن خلكان.
٩١. **وقعة صفين**: نصر بن مزاحم المنقري.

محتويات البحث

الإهداء ٥
مقدمة ٧

الفصل الأول: الأدوار السياسية للإمام علي عليه السلام ١١
الدور الأول: إصلاح الوضع الاقتصادي للدولة ١٣
الخطوة الأولى: رد الهبات والإقطاعات التي منحها عثمان .. ١٥
الخطوة الثانية: المساواة في العطاء بين جميع المسلمين ١٧
الدور الثاني: عزله لولاة الخليفة عثمان ١٩
نماذج من ولاة الخليفة عثمان ٢١
الجبهة المعارضة ٢٥
استبدال ولاة عثمان بولاة صالحين ٢٧
أسباب رفض الإمام علي عليه السلام التعامل مع ولاة عثمان ٢٨
نماذج من ولاة الإمام علي عليه السلام ٢٩
الدور الثالث: الإصلاح الاجتماعي وإلغاء الطبقية ٣٣
الدور الرابع: إقامته للحدود المعطلة ٣٨
الدور الخامس: إنشاؤه لديوان المظالم ٤٥

الدور السادس: تغييره لعاصمة الدولة الإسلامية ٤٧
أسباب عزوف الإمام علي عليه السلام عن المدينة المنورة ٤٩
أسباب اختيار الإمام الكوفة عاصمة لدولته ٥٣
الفصل الثاني: نتائج أدوار الإمام علي عليه السلام السياسية ٥٧
النتيجة الأولى: هروب الخونة واللصوص من دولته ٥٨
النتيجة الثانية: المواجهات العسكرية ٦١
معركة الناكثين (الجمل) ٦١
أسباب خروج طلحة والزبير والسيدة عائشة على الإمام علي .. ٦٣
أحداث المعركة ٦٧
معركة القاسطين (صفين) ٧٠
رفع المصاحف (كلمة حقٍّ يُراد بها باطل) ٧٢
معركة المارقين (النهروان) ٧٥
النتيجة الثالثة: نشوء تيارات فكرية متطرفة ٧٧
نشوء التيار التكفيري (الخوارج) ٧٧
نشوء التيار الناصبي (بني أمية) ٨٢
نشوء تيار الغلاة ٨٧
النتيجة الرابعة: اغتيال الإمام علي عليه السلام في محرابه ٩٧
الفصل الثالث العوامل الموضوعية لسياسة الإمام علي عليه السلام ١٠٥
العامل الأول: العامل الثوري ١٠٧
العامل الثاني: العامل الرسالي ١٠٩
العامل الثالث: العامل التربوي ١١٢

العامل الرابع: العامل التوعوي ١١٣
العامل الخامس: عامل الإقتداء بالسيرة النبوية ١١٥
العامل السادس: عامل المسئولية ١١٨

الفصل الرابع: سياسة الإمام علي في نظر الباحثين والدارسين ١٢١
وجهات نظر إيجابية نحو سياسة الإمام علي عليه السلام ١٢٢
وجهات نظر سلبية نحو سياسة الإمام علي عليه السلام ١٢٧

الفصل الخامس: الفوارق بين سياسة الإمام علي عليه السلام ومعاوية ١٤٧
معيار التقييم ١٤٧
نظرية الغاية تبرر الوسيلة ١٤٩
الفارق الأول: الرصيد الشعبي ١٥١
الفارق الثاني: طبيعة الحملة العسكرية ١٥٣
الفارق الثالث: الزعامات السياسية وأثرها في الصراع ١٥٨
الفارق الرابع: الزعامات القبلية وأثرها في الصراع ١٦٢
الفارق الخامس: نظرة المجتمع الإسلامي للإمام علي ومعاوية ١٧٠
الفارق السادس: الأتباع وأثرها في الصراع ١٨٥
الفارق السابع: السأم والملل والنفور من الحرب ١٩٢

مصادر البحث ١٩٧
المحتويات ٢٠٥

واتبَع عليّ من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها، فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوه أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته في صدق الرأي وأمان العافية، أو أنها كانت كافلة باجتناب المآزق التي ساقته الحوادث إليها.

عباس محمود العقاد

دار المحجة البيضاء
الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com